الفصل الرابع

مراكز العصبة الهانزية

- ويشمل :

1 – مركز لندن.

2 – مركز بروج .

3 – مركز بيرجن .

4 – مركز نوفجورود.

(الفصل الرابع)
مراكز العصبة الهانزية

– مراكز العصبة الهانزية الخارجية في (لندن – بروج – بيرجن – نوفجورود):

عندما أخذ التحالف بين المدن الألمانية ينمو تدريجيًا، وانضمت إليهم الكثير من المدن الشمالية التي وجدت أن صالحها العام يتطلب الانضمام إلى هذه العصبة League، التي تزعمتها لوبيك Lübeck، ثم ارتبطت هذه المدن كلها بالاتحادات الخارجية التابعة لها مما أدى إلى نشأة ما يعرف باسم العصبة الهانزية Hanseatic league (751– 772هـ/ 1350 – 1370م) أصبح لهذه العصبة أربعة مراكز كبرى فى نوفجورود Novgorod، ولندن London، وبروج Bruges، وبيرجن Bergen، تدير منها نشاطها التجاري[1]، والتي أصبحت بمثابة مراكز تجارية تأسست في هذه المدن، بل وفى مدن وبلدات أقل من ذلك[2].

نجحت الهانزا Hanse فى تنظيم هذه المحطات التجارية، والتي تمثلت أو عرفت بـ Kontores، ومن أجل تأمين النشاط التجاري حيث أن جميعها كانت خاضعة لها قانونيًا كمؤسسات، ففي الوقت الذي تنوعت فيه المصالح الهانزية من أجل الحفاظ على المرافق التجارية في العديد من المدن الخارجية، كانت هذه المحطات سبيلها إلى ذلك إذ يستشهد دولينجر Dollinger بالأسباب الإستراتيجية المتعلقة بإنشاء هذه المحطات التجارية في نوفجورود، وبيرجن، وبروج، ولندن، وهذه الأسباب تتمثل في: أنها كانت جميعها بمثابة مراكز تجارية كبيرة بعيدة عن مدن الهانزا الألمانية، حيث كان بإمكان تجار الهانزا من خلالها شراء كميات كبيرة من المنتجات التي كان عليها طلب كبير إلى جانب أن السلطات المحلية، كانت على استعداد لمنح امتيازات تجارية خاصة للألمان هناك[3].

---

(1) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص ص 596 – 597.

(2) The Hanse, in: Cave, Coulson, A Source Book, P.218

– مثل وتن Witten بالسويد، وويزبى Wisby بجزيرة جوتلاند ببحر البلطيق. عن ذلك انظر:

- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، جـ/1، ص 596؛ نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص 147.

- Myers, Medieval and Modern History, P.156.

(3) Quesenbery, the Institutional success of the German Hansa, P.48.

وتظهر أهمية مثل هذه المحطات التجارية فى نجاح الألمان فى نقل السلع التجارية والمنتجات عن طريقها، حيث قاموا بشراء الجلود الروسية والأخشاب من نوفجورود، والسمك من بيرجن، والثياب من بروج، والصوف بداية من لندن، وقد تثنى لهم ذلك من خلال الامتيازات التجارية التى حصلوا عليها والتى فاقت الامتيازات الممنوحة لغيرهم من التجار، وهذه الامتيازات خولت لهم الحق فى الحفاظ على الأسعار من خلال تجارة بيع الجملة والبيع بالتجزئة[1].

وقد اتضح لنا فيما سبق أهمية مثل هذه الامتيازات الخاصة بمنح الأجانب حق البيع بالتجزئة لأن ذلك الحق كان مقصورًا على التجار المحليين (أهل البلد) ويمنح للأجانب فقط بموجب الامتيازات.

ولقد بدأ الاتحاد الهانزى بانتظام أو باتحاد التجار الألمان فى المواقع النائية أمثال ويزبى بجزيرة جوتلاند، ولندن[2]، إذ نجحت العصبة فى عام 556هـ/1160م فى الاستيلاء على هذه الجزيرة التابعة للسويد واتخذت من مدينة ويزبى السابقة قاعدة وحصنًا لتجارة بحر البلطيق وأخذت بعدئذ تبسط نفوذها على المنطقة[3]، وفى القرن الثالث عشر الميلادى، انضمت إلى هذا التجمع موانىء بحر الشمال من هامبورج، وبريمن، وموانىء نهر الراين، مثل كولونيا[4]، أما اتحاد البلاد الفلمنكية، بزعامة بروج، فقد ظهر باسم "هانزا" فى لندن أثناء القرن الثالث عشر ولم يلبث أن تلاه هانزا كولونيا بلندن، وهانزا ستيليارد Steelyard الذى ضم معًا التجار الألمان، ومن بينهم تجار

(1) Quesenbery, the Institutional success of the German Hansa, PP.48 – 49.

(2) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم، ص136.

(3) محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا، ص 171.

- عن ذلك أنظر أيضًا:

- Perroy, Le Moyen Age, Vol. III, P.357.

(4) نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج2، ص 25.

- يرى البعض أن العصبة لم تقنع بما حازته، لذا وجهت احتكارها نحو السيطرة على تجارة نهر الراين وأنها أرغمت مدينة كلون على الخضوع لها مع أنها كانت صاحبة عصبة مستقلة، أما فى جنوب كلون فقد وقفت فى وجه العصبة الهانزية عصبة أخرى وهى عصبة الراين التى تكونت عام 1254م، عن ذلك انظر:
- محمود عمران، حضارة أوروبا، ص 171.

كولونيا، واتخذ مقره فى ستيليارد، وفى عام 701هـ / 1301م، حصلت هذه الجماعة من التجار الألمان، من ملك انجلترا على عهد بالامتيازات، أقر ماحازوه من حقوق، وما أصابه هذا الاتحاد من نجاح شجع قيام محطات مماثلة فى جهات أخرى[1].

وهناك الهانزا التيوتونى الذى طرد التجار الاسكندنافيين وحصل على مراكز فى الأماكن التجارية الرئيسية فى أوروبا الشمالية فى لندن، ونوفجورود ولا سيما فى بروج[2].

1- مركز لندن London:

وما سنتناوله بالتفصيل الآن هو هانزا لندن، إذ من الواضح بالفعل من خلال الغرفة التجارية Guildhall الخاصة بالألمان فى لندن أنهم قد حازوا شيئًا من السلطة فى عالم العصور الوسطى نستطيع أن نقف عليه من خلال دراسة هذه النقابات، وعندما يتحدث لابنبورج Lappenberg عن التعاون المشترك وتحقيق الاتحاد أو تكوين قومون Commune قوى فى انجلترا ومثل هذه النتيجة وتوجيه الجهود كذلك والاستخدام البارع لتعيين أو انتخاب Richard of Cornwall فنحن مضطرون تقريبًا أن نسأل من هى الجهة التى وجهت هذه الجهود، وهذا يضعنا أيضا وجها لوجه أمام تلك المنظمة الكبيرة والسرية التى عرفت بالعصبة الهانزية[3].

عاشت هذه العصبة أيام عظمتها فى القرن الرابع عشر الميلادى، حيث كانت نقابات التجار تسيطر على مدن بحر البلطيق ولا تزال بعيدة عن عوامل الفتن الداخلية، وذلك قبل أن يغير كشف العالم الجديد طرق التجارة الأوروبية، وقبل أن ينشىء الإنجليز لأنفسهم أسطولا تجاريًا، ففى

(1) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم، ص 136.
(2) نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج2، ص 25.
– عن هذه المراكزالتجارية، انظر أيضاً:
- Margret, Networks of Hanseatic League, PP.7-11.
- Gaimster, A Parallel history: The Archaeology of Hanseatic urban, P.412.
- Bjork, Three Hansa towns, P.299.
(3) Colvin, the Germans in England, P.32.
– عن الغرفة التجارية Gildhalle، الخاصة بالألمان فى لندن London انظر:
- Die Gildhalle der Deutschen, in: Lappenberg, Urkundliche Geschichte, PP.56 – 58.

القرن الرابع عشر الميلادى سنحت الفرصة للتاجر الألمانى – دون غيره من التجار – أن يصبح وسيط المبادلة والمتاجرة بين بلاد الشمال الغربى فى أوروبا، وكثر عدد التجار الذين أثروا من حمل الصوف الخام من انجلترا[1]، إذ على الرغم من أنها كانت وحدها فى أوروبا صاحبة حكومة قومية مكنتها من فرض سيطرتها على كل أطراف البلاد، دون مواجهة عقبة أمراء الإقطاع، وتمتعت بنظام اقتصادى مزدهر بالنسبة لكل دول وولايات القارة الأوروبية، لكن صناعتها وكذلك تجارتها لم تستفد من هذه الظروف، وحتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى، ظلت قطرًا زراعيًا رئيسيًا وباستثناء لندن London التى تردد على مينائها تجار من القارة منذ القرن الحادى عشر الميلادى، فإن كل المدن قبل حكم إدوارد الثالث Edward III (728 – 779هـ / 1327 – 1377م) كانت قانعة بالإنتاج المحدود لمطالب مواطنيها ومطالب الريف المحيط بها، باستثناء سترتفورد خلال خمسينيات القرن الثالث عشر، فلقد كانوا ينتجون فى المملكة صوفًا جيدًا لاستهلاكهم الخاص، ولزبائنهم المحليين، ويكمن سبب هذا الشذوذ الواضح فى تقدم الفلمنكيين غير العادى فى صنع الملابس منذ العصور الوسطى الباكرة.

وبسبب تفوق جيرانهم فى الأراضى المنخفضة عليهم فى هذا المجال، اكتفى الإنجليز بإمدادهم بالمادة الخام[2]، وبدلاً من المنافسة معهم، كرسوا أنفسهم لإنتاج المزيد والمزيد من الصوف، حيث كان يجد سوقًا دائمًا لبيعه[3]، إذ أن انجلترا قد ساهمت، على وجه التحديد، فى تقدم سلع الفلاندرز الصوفية، لأنها قدمت المواد الخام اللازمة لمعالجة القماش والتى ساهمت فى تشكيل القماش الفلمنكى الشهير[4].

لكن الشيء الذى يبدو غريبا هو أن السفن الإنجليزية لم تكن تنقل منتجاتها الصوفية، وفى البداية كانت أصوافهم تحمل على سفن أوروبية ومنذ القرن الثالث عشر الميلادى صار نقلها احتكارًا على الهانزا التيوتون، ولم يبذل ملوك انجلترا أى محاولة لتطوير نقل تجارتهم قبل نهاية العصور

(1) فيشر، تاريخ أوروبا، ج1، ص ص 226 - 227
(2) بيرن، تاريخ أوروبا، ص 146.
(3) بيرن، تاريخ أوروبا، ص 146.
(4) Hartmeyer, Der Weinhandel im Gebiete der Hanse, P.3

الوسطى[1]، بل على العكس أظهروا رغبتهم التامة فى جذب التجار الأجانب إلى شواطئهم، بمنحهم كل أنواع التسهيلات وكانت دوافعهم فى ذلك دوافع مالية، لأن دخلهم كان يعتمد على الضرائب المحصلة من التجارة الخارجية ومن السلفيات التى حصل عليها التاج من الرأسمالية التى تأسست فى لندن[2].

كان تجار الهانزا مدينين بالجميل للملوك الإنجليز بما أغدقوه عليهم من امتيازات داخل انجلترا، حتى وإن كانت مقابل ما منحوه لهم من أموال، من ذلك ما قام به الملك حنا الأول John I (596 – 613 هـ / 1199 – 1216م) من منح أهل بريمين Bremen نفس الحقوق التى يمتلكها الكولونيون داخل انجلترا، ثم تبعهم بفترة قصيرة مواطنو هامبورج، وشعب لوبيك Lubeck، ومراكز الهانزا الأخرى من روستوك Rostock وفيسمار Wismar، وشترالسوند Stralsund، وجرايفسفالد Greifswald[3]، خاصة أن الملك حنا John قد اشتهر بمنح الوثائق أو الدساتير رغم أن الامتيازات التى بها لم تكن بنفس الحجم[4]، كما أنها تعددت سواء كانت للمدن الأجنبية كالهانزا أو للمدن الإنجليزية مثل البراءة التى منحها لمدينة دونويش Dunwich[5]، عام 597هـ / 1200م والتى لم تكتفِ فيها بإعفائهم من الضرائب ورسوم العبور فحسب، وإنما منحهم نفس الحريات الممنوحة لموطنى لندن، على أن يقوموا بدفع رسومهم

(1) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 146.
- صدر فى سنة 1381 م، مرسوم بقصر تجارة المملكة على السفن الإنجليزية لكن وجد أنه من المستحيل تنفيذه، وأنه من الضرورى العودة لما سبق وهو النقل على سفن الهانزا، ومع ذلك، يجب أن يعتبر مرسوم عام 1381م كبداية لسياسة جديدة، تنذر بتدخل الدولة فى الاقتصاد. عن ذلك انظر:
- بيرين، تاريخ أوروبا، ص 146، حاشية (2) لمزيد من التفاصيل أنظر:
- Salter (F.R.), the Economic History Review, 1931, P.93.

(2) بيرن، تاريخ أوروبا، ص ص 146-147.
- كانت انجلترا بمثابة مسرح دخلت من خلاله الرابطة الهانزية وتحكمت فيه. عن ذلك انظر:
- Lloyd, A Reconsideration of Two Anglo- Hanseatic Treaties, P.916.

(3) The Angevins and Germany, in: Colvin, the Germans in England, P.233.

(4) Cave, Coulson, A Source Book, P.208.

(5) مدينة دونويش Dunwich: هى بلدة صغيرة شرق Suffolk، بانجلترا على ساحل بحر الشمال عنها انظر:
- The New Encyclopedia, Vol. III, P.713.

القانونية بأيديهم[1]، وليس من شك فى أهمية مثل هذه الامتيازات التى منحها الملوك للتجار خاصة تجار الهانزا، فلقد قام الملك هنرى الثالث Henry III[2] (613 – 671هـ/ 1216 – 1272م) فى عام 659 هـ/ 1260م بمنح امتيازات كبيرة لجميع التجار من الألمان الذين يملكون فى لندن البيت الذى يسمى الغرفة التجارية التيوتونية Teutoic Guildhall أو Aula Teutonicorum[3].

وعلى الرغم من مكانة هانزا لندن، إلا أنها لم تكن مركزاً عالمياً فى ذلك الحين، لكن أهم ما تميزت به سوق الأسماك على ساحل بيرجنفجورد Bergenfjord.

وهناك احتمالية كبيرة بان يكون تجار كولونيا هم أول من بدأ التجارة مع انجلترا، فهناك سجلات تاريخية فى أوائل العصور الوسطى تشير إلى تواجدهم هناك[4]، إذ أنهم اشتغلوا بالتجارة فيها لمدة عقود قبل نشأة الهانزا، ومن ثم فإن تجار كولونيا قد أمنوا الحقوق التجارية الأولى ذات الأهمية الكبيرة مع الملوك الإنجليز[5]، فتجسد أول وأهم نجاح للهانزا فى انجلترا يتضح فى إنجازاتهم الدبلوماسية الكبيرة، فكان تجار كولونيا أول من تاجر مع الإنجليز –كما سجلهم التاريخ الألمانى فى عام 552هـ / 1157م[6]، وذلك عندما قام الملك هنرى الثانى Henry II، فى ذلك العام،

(1) King John's Charter of privileges to Dunwich, in: Stubbs, Select Charters, A.D. 1200,P. 308.

(2) الملك هنرى الثالث: تولى الحكم خلفًا لأبيه الملك حنا، وهو فى التاسعة من عمره، فقامت عنه بأعباء الحكم مجموعة قديرة من البارونات وكبار الأساقفة، وعندما تولى هنرى الثالث السلطة الفعلية عام 1227م عادت انجلترا مرة أخرى تعانى من مساوىء حكم ضعيف، إذ قام بنقض مواد العهد الأعظم وتثبيتها كارها أكثر من مرة، ومهد السبيل إلى الخطوة الثانية نحو التوسع في أسس الحكم بالبلاد؛إلا أن الشعب كره سياسته الخارجية الفاشلة ونقضه المتواصل للوعود. عن ذلك انظر:

- سعيد عاشور، تاريخ أوربا، ص ص 477-478؛ نظير سعداوي، تاريخ انجلترا، ص ص97-100.

(3) The Angevins and Germany, in: Colvin, the Germans in England, P.234.
(4) Postan, the Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P. 113.
(5) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.12.
(6) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.17.

- كان تجار المدن الألمانية الشمالية يحصلون على امتيازات وحريات في إنجلترا. =

بوضع رجال ومواطنى كولونيا تحت حمايته باعتبارهم أصدقائه وخاصته، وحمايته لبضائعهم وسلعهم التجارية وأملاكهم، إلى جانب حماية منازلهم ومقارهم فى لندن[1]، وليس من شك فى أهمية مثل هذا الامتياز لأن أهل كولونيا كانوا فى حاجة إلى مثل هذه الحماية باعتبارهم تجارًا أجانب فى لندن.

كما قام الملك هنرى فى نفس العام بمنحهم امتيازاً آخر لا يقل أهمية عن الامتياز الأول ألا وهو الحق فى أن يبيعوا الخمور فى الأسواق التى يبيع فيها الفرنسيون خمورهم مقابل ثلاثة دنيير denarii دون أن يتعرضوا للأذى[2]، ولعل ما جذب نظر تجار كولونيا للتجارة عبر انجلترا، هو التمكن من تصدير الصوف الإنجليزى عالى الجودة، كما قاموا بالمتجارة فى نبيذ الراين، خاصة وأن الملوك الإنجليز كانوا حريصين على تشجيع التجارة الخارجية، وبما أن الثروات كانت تستنزف، لذا فإن الملوك وجدوا فى التجارة الخارجية وإقامة المعارض والأسواق أمرًا مربحًا[3].

كان تاريخ الملوك الإنجليز فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، فى منحهم الحقوق الخاصة للهانزا، تاريخ مميز فى حجم ومدة واستمرارية هذه الحقوق التى منحها الملوك المتعاقبين على العرش[4]، فقد قام الملك ريتشارد الأول Richard I فى عام 591 هـ / 1194م بمنح امتيازات ضرائبية لرعايا ومواطنى كولونيا فى انجلترا، حيث حررهم من بعضها وسمح لهم بحرية الذهاب والإياب فى شتى بقاع انجلترا إلى جانب حرية البيع والشراء فى معارض لندن[5]، وهى الحقوق التى طالب بها تجار الهانزا فيما بعد، إذ بتأسيس لوبيك فى عام 553هـ/ 1158م، فإن سكان ألمانيا الشماليين بالبلطيق تجرأوا على العمل بالتجارة مع انجلترا وفى ذلك الوقت سعوا إلى

= – في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، والتي كانت في بعض الأحيان تميزهم عن جميع الأجانب الآخرين، بل وتميزهم عن التجار الإنجليز أنفسهم. عن ذلك انظر:

- Postan (M.M.), Medival Trade and Finance, Cambridge, 1973, P.234.

(1) Protection of the Men of Cologne at London, in: Lappenberg, Urkundliche geschichte, part II, A.D. 1157, P.3.

(2) Priviledge of the Men of Cologne at London, in: Lappenberg, Urkundliche geschichte, part II, A.D.1157, P.4.

(3) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.17.

(4) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.17.

(5) Tax privileges of the Men of Cologne in England, in: Lappenberg, urkundliche geschichte, part II, A. d. 1194, P.5.

امتيازات تجارية خاصة، مثل تلك التى حصل عليها تجار كولونيا[1].

وعلى أية حال فإنهم كونوا رابطة لأن الامتيازات التى منحها هنرى الثالث Henry III، فى عام 659 هـ / 1260م تشير إلى الغرفة التجارية الممنوحة للتجار الألمان، ورغم أن الأمر لم يكن سهلا بالنسبة لتجار لوبيك والمدن الأخرى فى الحصول على اعتراف برابطتهم التى سبق تكوينها، وعلى ما يبدوا أنه فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى كانت هناك مؤسستين منفصلتين عن بعضها البعض[2]، اتحدتا معًا فيما بعد تحت مسمى هانزا ستيليارد أو دار القبان Steelyard الذى ضم التجار الألمان معًا، ومن بينهم تجار كولونيا، واتخذ مقره فى نفس المكان[3].

كانت دار القبان (ستيليارد) أحد المراكز الرئيسية لسكان الهانزا داخل لندن London وهو عبارة عن مجمع تطل حدوده، على نهر التيمز Thames[4]، ويضم بين جنباته رصيفًا وقاعة للطعام ومخازن وأماكن للمعيشة، وفى تلك البقعة من الأرض عاش تجار الهانزا حياة جماعية تحت إدارة عضو المجلس التشريعى ولجنة مكونة من اثنى عشر عضوًا.

وقام السكان بانتخاب هذه اللجنة، حيث يقوم كل قطاع من القطاعات الثلاث التالية بانتخاب ثلث اللجنة وهذه القطاعات هى:

1 – سكان أراضى الراين Rhinelanders، ومن بينهم تجار دينانت Dinant[5]، وهى ما

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.12.
(2) Postan, the Cambridge economic history of Europe, Vol. III, p, 113.
(3) السيد الباز العرينى، الحضارة والنظم، ص136.
(4) نهر التيميز Thames: نهر رئيسي في إنجلترا، ينبع من منطقة Cotswolds، على مساحة 210ميل (338كم) في اتجاه الشرق ناحية لندن ومنها إلى بحر الشمال. عن ذلك انظر:
- The New Encyclopedia, Vol. IX, P.921.
(5) مثلث مدينة دينانت Dinant فى انتمائها للهانزا حالة غريبة واستثنائية، إذ أنها كانت من بين المدن التى تنتمى للهانزا الألمانية فى ذلك الوقت، إذ لم تكن هناك مدينة تبدو أكثر غموضًا من هذه المدينة فى انتمائها للعصبة، والتى تقع على أنهار Meuse،Sambre فى أسقفية لييج Liegeإذ يظهر التجار من ليبج بالفعل فى العصر الأنجلوسكسونى عدة مرات بين أصحاب الامتيازات مثل أهالى Virelle وHogge لكنها تمكنت من الحصول فى عام 1329م، على الاعتراف بامتيازات خاصة لها ولمدة غير محددة مثل تلك التى منحها الملك إدوارد الأول للأسبان وغيرهم من الأجانب ولقد أكد إدوارد الثالث بنفسه فى 8 يوليو 1328م على حصولها عليها لمدة ثلاث سنوات، وفى هذه الوثيقة يشار إلى بلدة Dynant كمدينة فى ألمانيا كما أن أسقفية لييج كانت دائما من الأراضى الألمانية عن ذلك انظر:
- The Hanse towns, in: Colvin, the Germans in England, PP.236 – 237.

تعرف الآن ببلجيكا Belgium.

2 – تجار ويستفاليا Westphalian، وسكسونيا Saxon، والمدن الوندية (السلافية Wendish towns).

3 – البروسين Prussians، الألمان البلطيين أو الجرمان German Balts وكما هو الحال فى أى مكان آخر فإن المستعمرة الألمانية كانت خاضعة لعضو المجلس التشريعى فى الأحوال المدنية والتجارية، أضف إلى ذلك أن عضو المجلس التشريعى الألمانى وأعضاء ستيليارد (مقر ميزان القبان) كان عليهم تعيين عضو مجلس تشريعى للمراقبة فى لندن، وكانت مهامه تتمثل فى العمل كقاضى فى قضايا معينة والعمل كوسيط فى أى مفاوضات أو فيما يتعلق بالمعاملات مع سلطات المدينة، ووفقًا للعادات، فإن حارس باب الأساقفة Brshopsgats، الموصلة إلى جسر لندن، كان محل ثقة تجار ستيليارد، وكان ذلك يمثل عبء عليه وأيضًا أفضلية، إلا أن تجار الهانزا قدروه غاية التقدير لضمان حقهم فى معاهدة سلام أوترخت Peace of Utrecht فى عام 879 هـ/ 1474م[1].

أشارت الهانزا Hanse إلى مقرهم فى لندن باسم ستالهوف Stalhof، والذى حرفه المضيفين الإنجليز إلى ستيليارد Steelyard، وكما أن العلاقات مع الإنجليز كانت علاقة حيوية ومهمة لتكوين الهانزا وازدهارها وكان للستيليارد إسهام كبير فى هذا الشأن، لأن الجهود الدبلوماسية كانت مسئولية القيادة الثنائية، فكان يتم انتخاب عضو المجلس المحلى الألمانى، من العضوية الثلاثية والمتمثلة فى المصالح المتمركزة فى كولونيا Cologne ولوبيك Lubeck ودانزيج Dantzig، ثانيا كان عضو المجلس المحلى الإنجليزى يعين من قبل الملك من المواطنين الإنجليز، ومما يثير الغرابة أن كلاهما كان يوكل إليه مسئولية تمثيل المصالح الهانزية أمام السلطة الملكية والتى كان لها فاعليتها على مدار عدد من الأعوام[2].

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.113.
- عن معاهدة أوترخت ومدى أهميتها للهانزا. انظر:
- Lloyd, A Reconsideration of Two Anglo- Hanseatic Treaties, PP.924-925.

(2) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.50.
– لمزيد من التفاصيل عن الـ Stalhof أو الساحة فى لندن London .انظر:
- Das Haus ostwarts von windgoose lane nebst dem stahlhofe, in: Lappenberg, urkundiche geschichte, Vol. I, PP.68-72.

وتظهر أهمية العلاقات بين الطرفين من خلال الوثيقة الخاصة بمدن الهانزا، إذ يظهر فيها التفاوض بين تجار الهانزا داخل ستيليارد والسلطة الإنجليزية عندما طالبهم الملك، فى عام 771هـ / 1369م بالمساهمة فى حرب استثنائية وطلب من التجار الأجانب المقيمين فى لندن دفع مبلغ قدره إثنان وستون جنيها إسترلينيا، وتم التفاوض بين الطرفين إلى أن انتهى الأمر بالموافقة على دفع نصف المبلغ المطلوب، ولم يكن ذلك عن طريق القوة وإنما تم بالإرادة الحرة[1]، ولقد كان ذلك فى عهد الملك إدوارد الثالث Edward III، الذى كان صديقًا للهانزا لأنه كان مدينًا لهم بتمويل نفقات حرب المائة عام.

يقدم دولينجر Dollinger إحصاءً للقروض النقدية التى دفعتها الهانزا لملك انجلترا ما بين عامى 1338 و 1342م، والتى تزيد قيمتها عن خمسين ألف جنيهًا، ولا غرابة أن تكون الامتيازات التجارية التى حصلت عليها الهانزا قد ازدادت بسبب هذه التسويات المالية[2].

وإذا كانت كولونيا Cologne هى صاحبة الفضل على الهانزا بما حصلت عليه من امتيازات، داخل لندن، إلا أن لوبيك قد سعت هى الأخرى للحصول على امتيازات تجارية خاصة مثل التى حصل عليها تجار كولونيا[3]، فرغم تأثر لوبيك من المنافسة، إلا أنها أعدت نفسها لمواجهة الصعوبات، ونجحت بالفعل فى التغلب على حدة العقبات فى عام 624هـ / 1226م، عندما تمكنت من الحصول على امتياز من الإمبراطور فردريك الثانى Frederick II (1211 – 1250م) مكنتهم من المساواة مع رجال كولونيا، وتايل Tiel ونظرائهم فى انجلترا[4]، ومع هذه

(1) The Hanse towns, in: Colvin, the Germans in England, P.237.
(2) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.49.
- عن بعض صور الامتيازات التي حصلت عليها مدن الهانزا من الملك إدوارد الثالث في عامي 1340، 1344م. انظر:
- Asfchenfeldt (ed.), urkundenbuch der stadt Lübeck, Zweiter theil, PP.1008-1010.
(3) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.12.
(4) Kiesselbach, Die Wirtscfahtlichen grundlag en der deutschen hanse, P.66.
- See Also: Grant by Frederick II to Lubeck of Freedom from tolls at Cologne and Tiel, in: Sartorius, urkundliche geschichte, Vol. II A.D. 1226, P.27.

المساواة فى الحقوق التى أصبحوا يتمتعون بها فى القرن الثالث عشر الميلادى، لم نعد نسمع شيئًا عن الإهمال لهم أو لتجار هامبورج فى انجلترا، وفى وقت لاحق تم الاتحاد بين مجموعات الألمان هناك، فحصلت لوبيك كذلك فى عام 636هـ / 1238م من ملك انجلترا على ضمان الحريات المشروعة وبعض الإعفاءات الضرائبية، إلى جانب حصولها فى عام 649هـ / 1251م داخل لندن على الحق فى زيارة المدينة دون التقيد بشروط، وفى عام 1258م حصلت من الملك على امتيازات جديدة فى مجال الحماية، وفى عام 1266م حصل تجار هامبورج على امتيازات جديدة فى مجال الحماية كذلك[1].

وهكذا أخذ التجار الألمان ممثلين فى اتحاد الهانزا يسعون للحصول على المزيد من الامتيازات داخل انجلترا مستفيدين من مزاياها المتعددة، الأمر الذى دفع التجار الإنجليز غير المستفيدين من هذه المزايا إلى الاعتراض على المعاملة الخاصة للأجانب[2]، وفى بداية الأمر أقام تجار ألمانيا جبهة موحدة وطالبوا جميعًا بحماية المزايا الملكية التاريخية التى حصلوا عليها، وقد صدق ملوك انجلترا مباشرة على هذه الامتيازات وساوموهم جميعًا وذلك لأن انجلترا كانت شريكًا كبيرًا فى تجارة الطريق الشمالى العظيم وأيضًا فى تخومها الجنوبية، الأمر الذى يجعلنا نؤكد مرة أخرى على أهمية الامتيازات الأولى التى حصلت عليها كولونيا والتى كان لها الفضل فى نمو الهانزا[3].

يتضح لنا مما سبق أهمية الدور الذى لعبته مدن الهانزا داخل انجلترا، وذلك من خلال ما حازته من امتيازات لتجارها داخل ستيليارد Steelyard فى لندن، من ملوك انجلترا والذين وجدوا فى ذلك تبادلاً للمصالح والمنفعة الخاصة.

2 – مركز بروج Bruges بالفلاندرز Flanders:

سوف نتناول موقف العصبة فى الفلاندرز، من أجل إيجاد إيضاح للكثير مما هو مظلم وغامض فى تاريخ أوروبا، يشبه موقف الفلاندرز كثيرًا موقف المجتمع الذى يزدهر وينمو فى بعض

(1) Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen grundlag en der deutschen Hanse, PP.66 – 67.

(2) عن اعتراض التجار الإنجليز وإصرارهم على مطلبهم بالتجارة. انظر:
- Lloyd, A Reconsideration of Two Anglo- Hanseatic Treaties, P.917.
- See Also: Lloyd, England and the German Hanse, PP.109-172.

(3) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.12.

الأراضى الغنية كمنطقة بركانية، إذ أنها تزدهر، ولكن مع ذلك تظل فى قلق من أجل احتمال ثورة كبيرة للبركان مما يجعله يشعر بالخوف او التوجس، من أن يتعرض لانهيارات أرضية، وأن تتناوب عليه الشقوق مما يؤدى إلى تدميرها، وأن تسحقها القوى العملاقة وتزعزع سلامتها وتهدد وجودها.

كان ميناء بروج المركز الرئيسى لأوربا الغربية، إذ أنه كان بالنسبة لبحر الشمال يمثل ما كانت تمثله مدينة البندقية Venice للبحر المتوسط[1]، وكان يتصل بالبندقية من نهر الراين Rhine، وBrenner، وكذلك طريق البحر من خلال مضيق جبل طارق، وقد جلبت سفن

(1) كانت البندقية تعتبر من أكبر مرافىء حوض البحر المتوسط، تلك المدينة التى كانت متاخمة لبحر الأدرياتيك فى الشمال الشرقى من إيطاليا وكانت بمثابة جزيرة كبيرة مثلها مثل كثير من المدن الإيطالية ولكن موقعها هذا جعلها تتحكم فى العصور الوسطى فى مداخل الدولة البيزنطية وبلاد الشرق الإسلامى من جهة البحر، ومداخل أوروبا العصور الوسطى من جهة البر، إلى جانب تحولها إلى قومون قوى ووجود حاكم منتخب يلقب بالدوج ومجلس العشرة كل ذلك ساعدها على أن تحتفظ باستقلالها السياسى، وتعتبر تلك المدينة من أولى المدن التجارية التى لعبت دورًا بارزًا فى التاريخ الاقتصادى للعصور الوسطى عن ذلك انظر:

- عفاف صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص 3. لمزيد من التفاصيل عن البندقية انظر:
- شارل ديل، البندقية جمهورية ارستقراطية، ترجمة/ أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر، دار المعارف، القاهرة، 1948م.
- Haziltt (W.C.), the venetian Republic "its rise – its growth – its fall", 2 Vols, New York, 1966.
- Hodgson (F.C.) , the Early History of Venice, London, 1901.
- Brown (H.), the Venetian republic, London, 1902.
- Thiriet (F.), Histoire de Venise, paris, 1961.
- Valentin (F.), Histoire de Venise, N.D.=

- عند عقد مقارنة بين الخصائص المختلفة للبحرين المتوسط وبحر البلطيق، فإنه لا يمكن أن تتضح هذه الخصائص بصورة أفضل إلا من خلال المقارنة بين الجمهوريات التجارية الإيطالية العظيمة والاتحاد الهانزى الألمانى Hanseatic Federation of Germany، وقد كانت المنافسة مشتعلة بينهما، فإذا كان بحر البلطيق فى وضع غير ملائم بالمقارنة مع البحر المتوسط فى المناخ، وكذلك فى الحجم، إلا أنه ليس أقل شأنًا فيما يتعلق بالثروة والمنتجات المتنوعة الخاصة به، فالأنهار العظيمة سعت العديد من الأراضى الحاضنة لها والتى أنتجت على فروعها الغنية المنتجات الضرورية مثل القمح، كما أنه فى الأرض تختفى الكثير من الكنوز المعدنية، فى حين أن البحر نفسه كان غنيًا بالعديد من الأسماك المتنوعة التى تتكاثر فى مياهها، وقد قيل أيضًا أنه منذ أيام الهانزا وامتلاك بحر البلطيق، فإن حيازة بحر البلطيق وسيادتها للبحر هما مصطلحان مترادفان. عن ذلك انظر:

- Zimmern, the Hansa towns, PP.21-22.

الهانزا إلى مركزهم ومحطتهم فى بروج الصوف من انجلترا وإسبانيا لكى يصنع قماشًا فى المدن المحيطة بها وبعد إعداده يتم تصديره مرة أخرى عن طريق التجار الألمان الذين يحملونه إلى الخارج إما من طريق البحر أو الطرق البرية إلى جميع أنحاء أوروبا(1).

كان ميناء بروج يعيش أولا وأخيرًا على عملائه الأجانب، فكانت الغالبية العظمى من السفن، التى ترددت عليه تخص ملاك سفن من الخارج، وقد قام سكانها أنفسهم بدور محدود فى النشاط التجارى انحصر فى قيامهم بدور الوسيط بين التجار الذين احتشدوا فيه من كل الأنحاء، ومنذ القرن الثالث عشر الميلادى فصاعدًا، كانت الهانزا من بين من امتلكوا مخازن أو مكاتب محاسبة هناك، وكانوا هم الذين تكفلوا بالنشاط فى هذا الميناء الكبير، الذى خلف أسواق شامبني كنقطة اتصال بين تجار الشمال وتجارة الجنوب(2).

كانت بروج مدينة فلمنكية مهمة، ذات موقع متميز حيث وقعت على جدول يتدفق إلى خليج زوين Zwin فى الطريق الجنوبى من دلتا نهر الراين Rhine، الأمر الذى منحها موقعًا متميزًا على طرق التجارة الرئيسة برًا وبحرًا، وقد حاولت قبل غيرها من القومونات الفلمنكية الحصول على حريتها فى القرن الثانى عشر الميلادى(3)، وهو ما نجحت فى الحصول عليه قبل عام 586هـ / 1190م، حيث منحها كونت الفلاندرز Flanders فيليب Philip براءة تضمنت عددًا من الحريات لمواطنيها، كما كانت بمثابة الدستور أو القانون الذى اتبعه جميع المواطنين(4)، على أن ما يهمنا من هذه الوثيقة أو البراءة هو أنها منحت حق التقاضى، خاصة للتجار الأجانب، حيث ورد فيها أنه إذا حضر تاجر أو أى أجنبى أمام الوكلاء للحصول على حق له وكان المشكو فى حقهم موجودون أو قادرون على الحضور، فكان الوكلاء يمنحونهم من ثلاثة إلى ثمانية أيام حتى يتمكنوا من تلبية طلبهم وإعادة الحق إليهم وفقًا لقانون المدينة(5)، الأمر الذى جعل المدينة تتمتع بحرية قانونية

(1) Colvin, the Germans in England, PP.37-38.

(2) بيرين، تاريخ أوروبا، ص ص 141 – 142.

– عن ميناء بروج Bruges وأهميته التجارية انظر:

- Pirenne, Cohen, Focillon, La civilization occidental au moyen age, Tome VIII, PP.127 – 128.

(3) Charter of Bruges, in: Cave, Coulson, A Source Book, P.207.

(4) Kemble, The Saxons in England, Vol. II, About A.D. 1190, Appendix, P.533.

(5) Kemble, The Saxons in England, Vol. II, About A.D. 1190, Appendix, P.533.

مكنتها من أن تحتل موقع الصدارة بين مدن الفلاندرز الأخرى، كما سهل لها إقامة أسواق تجارية مهمة[1].

وليس من شك فى أن كونتات الفلاندرز كانوا يدركون أهمية تواجد التجار – خاصة الأجانب – داخل مدن الفلاندرز لذا فإنهم كانوا يقومون بمنح مثل هذه البراءات متضمنة عددًا من الامتيازات لهؤلاء التجار رغبة منهم فى جذبهم، خاصة أنهم هم من كانوا يقوموا بتولى شئون التجارة داخل مدن الفلاندرز مثلها حدث مع مدينة سانت أومير St. Omer، من قبل عام 521هـ / 1127م، عندما قام الكونت وليام William كونت الفلاندرز[2]، بمنح التجار بها الإعفاء من الرسوم ومن دفع إيجار سنوى[3]، وتظهر أهمية هذه البراءة فى أن اتحاد سانت أومير هذا قد أصبح – فيما بعد فى القرن الثانى عشر الميلادى – عضوًا فى مجموعة الهانزا الفلمنكية فى لندن[4]، ومما تضمنته هذه البراءة من امتيازات مهمة، أن أى شخص يأتى إلى ميناء نيوبورت Nieuport[5]، من أى مكان يسمح له بدخول مدينة سانت أومير، على متن أى سفينة يرغب فيها، ولقد منحت لهم كذلك المراعى ليستخدموها فى الإحتطاب، بالقرب من هذه المدينة والتى تسمى لو Lo والمراعى والمروج والأراضى المحيطة ما عدا ليبرس Lepers مثلما كانت فى زمن الكونت روبرت الملتحى Count Robert the Beardied[6].

ولقد كانت مثل تلك البراءات على درجة كبيرة جدًا من الأهمية إذ يتضح من خلالها أهمية الدور الذى لعبته مدن الفلاندرز فى التجارة العالمية، فكانت بروج فى هذه الفترة ولمدة زمنية طويلة تستورد الصوف ثم تقوم بتصنيعه وتعيد تصديره مرة أخرى، وبهذا أصبحت بروج من أهم موانىء

(1) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 99

(2) وليام كليتو Wiliam Clito :تم انتخابه كونتا على الفلاندرز Flanders بناء على رغبة الملك لويس السمين Louis the fat فى عام 521 هـ / 1127م عن ذلك انظر:
- Cave, Coulson, A source Book, P.200.

(3) A Chater for the town of St. Omer, in: Cave, Coulson, A Source Book, P.200.

(4) Cave, Coulson, A Source Book, P.200.

(5) ميناء نيوبورت Nieuport: ميناء بحري في هولندا، يبعد 15 ميلاً عن شرق روتردام. عن ذلك انظر:
- Brookes (R.), General Gazetteer; Compendious geographical dictionary, London, 1818, P.489.

(6) Kemble, The Saxons in England, Vol. II, A.D. 1127, Appendix, P.528.

البلاد[1]، وأصبحت العاصمة التجارية والمنفذ الخارجى لإقليم الفلاندرز بغلاتها الزراعية والصناعية، إذ عندها يتقاطع محور التجارة الأوروبية، فقد يسر لها موقعها القريب من شاطىء بحر الشمال والمقابل لإنجلترا استيراد الصوف الإنجليزى لينسج على الأنوال الفلمنكية والفرنسية[2].

ولقد شكلت زوين Zwin، وحدة اقتصادية كان مركزها بروج، حيث أصبحت مقر السوق العالمية، ولقد مرت هذه المدينة بتطورات بعيدة المدى فى وقت لاحق الأمر الذى زاد من أهميتها.

دعونا الآن نعود إلى نقطة البداية بالنسبة لنا، ألا وهى ظهور التجار أو التجارة الألمانية فى زوين، إذ أننا فى القرن الثالث عشر الميلادى، نرى التجار هنا من جميع المدن الهانزية من الشرق، ومن منطقة بحر الشمال، حيث حضر المواطنون من ريجا Riga، وتالين، ويزبي Wisby، ومدن الدائرة الوندية Wendish، ولوبيك، وهامبروج، وكولونيا، ومدن ويستفاليا Westphalia وجوسلار Goslar وغيرها من المدن السكسونية مثل برانـدنبورج Perleberg وبروسيا Prussian ... إلخ.

وقد كانت زوين مقرًا للاتحادات الألمانية التى كان لها مقر فى زوين تستخدمه كقاعدة لها، والتى شهدت بالطبع تغيرات كبيرة فى هذه الفترة، ففى القرن الثالث عشر الميلادى، رأينا هناك أربع مجموعات من رجال الأعمال الألمان يشتركون فى العيش هناك وهم، تجار اتحاد جوتلاند Gothland واتحاد كولونيا واتحاد لوبيك واتحاد هامبورج والتى كان لهم جميعًا مرافق ومواكب خاصة بهم[3].

ولقد تم دمج هذه المجموعات فى اتحاد واحد وهو الهانزا Hanse، كما هو الحال فى انجلترا، منذ الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الميلادى.

وفى الفلاندرز نسمع عن ذلك فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى، ولم يمضى وقت طويل حتى اتحدوا فى بيرجن Bergen، بالنرويج حيث يذكر البعض أنه فى عام 744هـ/

(1) Adelson (H.L.), Medieval Commerce, New York, 1962, P.86.
(2) محمود عمران، حضارة أوروبا، ص 169.
(3) Kiesselbach, Die Wirtschaftlich Grundlag en der Deutschen Hanse, PP.188-189.

1343م بالفعل كانوا وحدة متماسكة، وفى عام 748 هـ / 1347م وردت الأخبار الأولى عن اتحاد جمعية التجار الألمان فى الفلاندرز إذ قرر التجار الألمان فى الفلاندرز الاتحاد، ويبين النظام الأساسى للاتحاد فى عام 748هـ / 1347م، أن الاتحادات المختلفة فى المجتمع قد قررت الاتحاد مع تمثيل خارجى موحد، وتوفير عدد من المرافق المشتركة من أجل التنظيم الداخلى لذا تم إنشاء محطة تجارية لهم فى بروج، إذ تنص الفقرة الافتتاحية للنظام الأساسى على أن التجار من ممالك العالم الألمانى، عليهم أن يجتمعوا فى تلك السنة فى مدينة بروج[1].

وليس من شك فى أهمية مثل هذا الاتحاد التجارى بين الاتحادات الألمانية الأربع فى الفلاندرز، لأن ذلك جعل هناك مرونة فى الاتصال بين التجار الألمان، والتى كانت موجودة من قبل بالفعل، إلا أنها وضحت الآن بصورة أكثر قوة[2].

فلقد رأينا كيف كانت العلاقات بين الفلاندرز وانجلترا قوية، حتى قامت بينهما تحالفات سياسية، كانت تدافع عنها الطبقة البرجوازية فى مدن الفلاندرز، لأن ثروتها كانت قائمة على أساس تحويل تجارة المادة الخام من الصوف[3]، وهو ما نلاحظه فى البراءة الممنوحة لمدينة سانت أومير St. Omer من كونت الفلاندرز، حيث وعدهم بأنه فى حالة حصوله على أرض خارج الفلاندرز، أو فى حال عقد معاهدة سلام بينه وبين عمه هنرى الأول Henry 1 (494 – 530هـ / 1100 – 1135م) ملك انجلترا، سيعفيهم من الجمارك المنصوص عليها فى المعاهدة[4]. وهو ما كانت تسعى إليه نقابات التجار فى جميع مدن أوروبا العصور الوسطى، من أجل خدمة مصالحها الاقتصادية، والحصول على أعلى ناتج من الربح، وهو ما سعى إليه التجار داخل الفلاندرز من أجل نيل مثل هذه الامتيازات خاصة التجار الألمان الذين قاموا بدور الوساطة فى النقل عبر الفلاندرز، فقد لعبوا دورًا كبيرًا فى التجارة فى القرن الثالث عشر الميلادى، وربما كانت أعظم من التجارة التى توفرت لأى شعب آخر ما عدا الإيطاليين، وكانت كل أوروبا من حدود الفلاندرز

(1) Kiesselbach, Die Wirtschaftlich Grundlag en der Deutschen Hanse, P.189.
(2) Kiesselbach, Die Wirtschaftlich Grundlag en Der Deutschen Hanse, P.189.
(3) Gouvard, la France au Moyen Age, PP.274 – 275.
(4) Kemble, the Saxons in England, Vol. II, A.D. 1127, P.528.

Flanders إلى حدود نهر السالف Saleph[1] البعيدة قد انفتحت على تجارتهم، وكانت مدينة كولونيا، قد سيطرت بقوة على التجارة على طول نهر الراين، وحققت تفوقًا سريعًا، مما دفع الفلمنكيين إلى التفوق فى إنتاج الأقمشة حتى يحموا تجارتهم من أى منافسة تسبب لهم ضررًا فى الوقت الذى لعب فيه أهل كولونيا دور الوسطاء فى المتاجرة مع جنوب ووسط ألمانيا[2].

لذلك فقد تم منح الفلمنكيين امتيازاً فى كولونيا حيث اتفق تجار هذه المدينة وتجار الفلاندرز على أن أى فلمنكى يستعد لترك المدينة برًا أو بحرًا وكان لأحد دين عنده ويوجد شهود على ذلك فعليه أن يثبت ذلك وفقًا لقانون كولونيا، ولا يكون ذلك عائقًا له، ولكن إذا لم يكن لديه شهود فإن المتهم الذى لم يكن معتديًا أو عطل العدالة، يمكنه الحصول على البراءة بأداء القسم بأنه برىء فيحصل على حريته بذلك، ولا يجبر أحد من أهل الفلاندرز على القتال أو المبارزة أو التوجه إلى ساحة القضاء المعروفة باسم Ordeal، إلا إذا ارتكب جريمة القتل أو قام بجرح أى شخص أو لقيامه بتزوير الأموال أو انتهاك السلام، كما نصت الامتيازات على عدم إجبارهم على تسديد ديون غير التى تعهدوا بتسديدها[3]، ولقد كانت هذه الامتيازات التى حصل عليها تجار الفلاندرز داخل كولونيا على درجة كبيرة من الأهمية إذ تثبت أنها كانت متبادلة بين الطرفين، كما تدل على مدى النشاط التجارى للفلاندرز آنذاك.

تركزت فى الفلاندرز التجارة الألمانية كلها من ستيليارد Steelyerd فى لندن London، ومحطات روسيا Kontors of Russia، و Schoenen بألمانيا، وبيرجن Bergen، وفندق الألمان فى البندقية Venice، كما أن شئون النقابة الألمانية فى بروج أصبحت موضع اهتمام من جميع مدن ألمانيا، ومن ليفونيا Livlan، وجوتلاند على نهر الراين، ففى وقت مبكر نرى المدن الألمانية متعاونة فى إدارة الشئون الفلمنكية، إذ نجد فى عام 650 – 651هـ / 1252 – 1253م عضو مجلس مدينة لوبيك وكاتب العدل فى مجلس هامبورج، يظهرا كمتحدثين

(1) نهر السالف Saleph: كان يسمى فى التاريخ القديم Calycadnus، وهو نهر فى الأراضى التركية. عنه انظر:
- Setton (ed.), A history of the Crusades, Vol. II, P.799.

(2) Adelson, Medieval Commerce, P.86.

(3) Fagniez, Gustave, Documents Relatifs a L'Histoire de L'industrie et du Commerce en France, Vol. 1, Paris, 1898, A.D, 1197, P.97.

باسم المصالح الألمانية فى الفلاندرز[1].

كان تجار الهانزا يعيشون فى جميع أنحاء مدينة بروج دون أن يقتصروا على أماكن معينة، فكان البيت فى هانزا عبارة عن بناء فخم به برج عال ونوافذ قوطية[2]، جميلة والتي لم تعرف من قبل إلا عام 875هـ / 1470م، بناء على الملكية التى منحتها المدينة، فلم يكن هذا البناء مجرد مكان للإقامة أو السكن، بل كان ناديًا يحتوى على قباء لتخزين البضائع ويحتوى على مكاتب لأعضاء المجلس التشريعى[3].

عندما تم بناء البيت الهانزى بعد ذلك فى أنتويرب Antwerp[4]، لإيواء الضيوف إلا أنه كان من الصعب تأجير جميع الغرف الموجودة فيه لأن أغلب التجار كانوا يفضلون الإقامة فى المدينة وليس الإقامة فى مناطق خاصة.

وفى بروج شعر تجار الهانزا بالراحة بها عن غيرها من البلدان الأجنبية، وذلك لأنهم ليسوا بحاجة إلى مترجم يترجم عن السكان الأصليين، ففى العصور الوسطى كانت اللغة الألمانية العامية Low German أشد قربا للفلمنكية Flemish حيث ترجع كلاهما إلى اللغة الألمانية الفصحى والتى أصبحت لغة الأدب ويتم تدريسها بالمدارس وأيضًا لا يوجد فى بروج تضاد كالذى فى لندن، فالحكومة البلدية وأهل البلاد يرحبون بالتجار الغرباء، وحيث ان صناعة النقل الفلمنكية، قد اضمحلت منذ زمن بعيد، إلا أنهم أدركوا جيدًا أنهم يعتمدون على الأجانب لتحقيق الرخاء الاقتصادى وأيضًا يعتمدون على الهانزا خاصة فيما يتعلق بالواردات البروسية والبولندية من الحبوب[5].

---

(1) Colvin, The Germans in England, P.39.

(2) الفن القوطى: مثل الفن القوطى مظهرًا عظيمًا من مظاهر النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر الميلادى، كما عبر عن الحماسة الدينية التى سادت أوروبا فى ذلك العصر. عن ذلك انظر:
- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، جـ/2، ص 263 .

(3) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.113.

(4) أنتويرب: هي مدينة في مملكة بلجيكا الأوروبية، وعاصمة لمقاطعة Belgian (بلجيكا) التي تحمل نفس الاسم Antwerp على نهر شيلد Schelde. عن ذلك انظر:
- The New Encyclopedia, Vol. I, P.1001.

(5) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.114.

كان يرأس المستعمرة الهانزية Hanseatic فى بروج مجلس مكون من ستة أعضاء، بمعدل اثنين من كل قطاع من القطاعات الثلاثة، قطاع الراين، والقطاع الويستفالى – الونيدى، والقطاع البروسى البلطيقى، وبعد عام 877هـ / 1472م، تناقص عدد أعضاء المجلس التشريعى من ستة إلى ثلاثة بالإضافة إلى لجنة استشارية مكونة من ست أعضاء، وكانت مهمة أعضاء المجلس التشريعى مهمة ثلاثية:

1 – الحفاظ على جميع الامتيازات التجارية المهمة.

2 – تطبيق القوانين الخاصة بالسلع.

3 – الحكم فى أى قضية يرفعها تجار الهانزا ضد آخرين[1].

يتضح لنا مما سبق مدى أهمية أعضاء المجلس التشريعى داخل بروج، والتى تظهر جلية وواضحة من خلال مهامها الثلاث وهى المهام التى لم تختلف تقريبًا فى كافة المراكز والمستعمرات الهانزية الخارجية، ومن أبرزها الحفاظ على الامتيازات التجارية التى نالوها فى الخارج وحماية تجارهم من خلال تطبيق قوانينهم الخاصة فيما يتعلق بالسلع وكذلك الفصل فى المنازعات القضائية وهو أمر على جانب كبير من الأهمية حتى وإن كان الفصل القضائى ليس فى القضايا الجنائية.

تظهر سطوة الهانزا هناك أنه فى عام 679هـ/ 1280م قامت لوبيك بصفة خاصة بوصفها رئيسًا للمدن الألمانية بمعاقبة بروج وذلك بنقل محطتها إلى أدنبيرج Aadenburg، وفى نهاية هذا القرن نجد لوبيك تتحد مع الشعوب الوندية (السلافية) والسكسون والويستفالين Westphalian، والبروسين، ومدن ليفونيا فى حرب الفلاندرز الفرنسية[2].

وهكذا نجد محطة الفلاندرز فى بروج، قد تعرضت مرارًا لتهديدات الحظر التجارى من تجار الهانزا، فعلى الرغم من أن هذه المحطة كانت هى الحصن الأول للهانزا، إلا أنها لم تكن آمنة ورغم أن صناعة الملابس كانت مزدهرة عند الفلمنكيين إلا أنهم تعرضوا لخطط الحظر الاقتصادى الذى كانت تفرضه الهانزا عليهم أكثر من غيرهم، ففى خمس مناسبات متفرقة فى الفترة من عام 679هـ / 1280م إلى 845هـ/1441م كانت الهانزا تهدد بنقل أو إنها قامت بالفعل بنقل استثماراتها

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.114.
(2) Colvin, The Germans in England, P.39.

الاقتصادية من محطتهم إلى مكان آخر[1].

فقد وجدت الهانزا فى تعليق التجارة مع الفلاندرز فائدة كبيرة ونقل محطة بروج إلى مكان آخر أفادهم كثيرًا فقد كانوا قادرين على مواصلة تجارتهم الحيوية فى أى مكان جديد فى الوقت الذى يطبقون فيه الحظر التجارى الفورى على صناعة الثياب فى بروج المعتمدة عليهم، ومن الواضح أن الخطة المعمول بها كانت خطة ناجحة منذ الحظر الأول الذى طبق فى عام 679هـ/1280م، حيث علقت الهانزا تجارتها مع الفلمنك فيما لا يقل عن خمس مرات، وكانوا دائمًا ما يعيدون المحطة إلى بروج بعد تأمين الامتيازات التى يبغونها[2].

قام مجلس مدينة لوبيك بفرض الحظر على بروج فى عام 705 هـ / 1305م، وعامى 707 – 709هـ / 1307 – 1309م، لأنها كانت تصر على استخدام أوزان الهانزا[3]، فقد منحهم الكونت روبرت الثالث Rebort III امتيازات فى عام 707 هـ / 1307م، فى جميع أنحاء الفلاندرز، والتى كان من بينها الحق فى حرية التجارة الخاصة مع المدن الأخرى، وهم بذلك التزموا بدور الوساطة، كما منحهم المزيد من الامتيازات فى عام 709هـ / 1309م والتى منها منحهم الحق الحصرى فى جلب الصوف والشمع والفراء والحبوب وغيرها من السلع إلى بروج دون أن يشاركهم أحد فى ذلك[4].

وفى عام 760هـ/1358م تم تطبيق الحظر مرة أخرى حيث تم نقل التجارة الهانزية من بروج إلى دودريخت Dordrecht، وأكد عليه مرة أخرى فى عام 762هـ/ 1360م[5].

وهكذا فإن نقل التجارة وتحويلها إلى محطة أخرى، كان أقوى سلاح، تم استخدامه من قبل

(1) Quesenbery, The Institutional success of the German Hansa, P.20.
(2) Quesenbery, The Institutional success of the German Hansa, P.51.
(3) Colvin, The Germans in England, P.39.
– يذكر Quesenbery: أن أول حظرين تما فى عام 1280، 1307م بينما يذكر كولفن Colvin، أن هناك حظراً آخر تم بينهما عام 1305م.
(4) Daenell, Die Blütezeit Der Deutschen Hanse, Vol. I, P.16.
(5) Colvin, The Germans in England, P.39.
– عن نقل التجارة إلى دودريخت فى عام 1358 م، 1360 م، وطريقة تطبيق الهانزا لعقوبة الحرمان ضد الفلاندرز، والأضرار الناتجة عن هذا الحظر. انظر:
- Daenell, Die Blutezeit Der Deutschen Hanse, Vol. I, PP.20 – 23.

لوبيك، وكان يتم توقيع القرار عن طريق تجار جوسلار Goslar، وهامبورج وروستوك وشترالسوند و فيسمار وبرونسويك Brunswick وغيرهم من تجار الإمبراطورية الرومانية من الهانزا الألمانية، الذين يقيمون فى بروج، فقد كانت الهانزا الألمانية فى الفلاندرز صورة مصغرة فى الواقع من الهانزا الأصلية فى ألمانيا، إذ كان وكلاؤها يتشاورون مع مدينتهم الأم حتى فى المسائل البعيدة وذلك لخدمة تجارتها وسياستها[1]، ومما لا شك فيه أنه لكى ينجح الحظر لابد من تعاون كافة الأطراف، لأنها الطريقة الوحيدة للحصول على امتيازات من الفلمنكيين أن تجعلهم يعانون من الخسارة التجارية[2].

يتضح لنا مما سبق كيف تمتعت الهانزا بمكانة متميزة وخاصة جدا فى محطة ومركز بروج الذى بلغ مكانة كبيرة بحكم موقفه المتميز على طرق التجارة وكيف كانت الهانزا كذلك تتمتع بالاحتكار التجارى داخله وتمارس الضغط على الفلاندرز من خلال تطبيق الحظر التجارى، والذى نجحت فى تطبيقه بصورة كبيرة إذ أثبتت الهانزا أن السلاح الاقتصادى كان أقوى سلاح فى ترسانتها الحربية لفترة طويلة[3].

3 – مركز بيرجن Bergen:

سوف نتناول الحديث عن مركز العصبة الهانزية الخارجى فى بيرجن فى النرويج Norway ذلك المركز الذى كافح الألمان من أجل إقامته هناك، فقد قاوم النرويجيون التواجد الألمانى بشدة أكثر بكثير مما كان عليه الأمر فى الدانمارك Denmark، والسويد Swedish، وهو الموقف الذى واجهه الألمان ونجحوا فى ذلك[4]، لا عن طريق استخدام القوة، وإنما بفرض العقوبات التجارية كاستخدام الحظر والحصار التجارى على شركائها من التجار المخالفين.

ويعد نجاحهم الباهر فى تحقيق ذلك على التجار النرويجيين فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى أفضل مثال على فاعلية هذا النظام[5].

قامت مجموعة من المدن الهانزية البحرية، منها لوبيك، وروستوك، وشترالسوند Stralsund، وجريفسفالد Greifswald، وريجا Riga، بالاتحاد معا جنبا إلى جنب مع

(1) Colvin, The Germans in England, PP.39 - 40
(2) Quesenbery, The Institutional success of the German Hansa, P.52.
(3) Quesenbery, The Institutional success of the German Hansa, P.52.
(4) Daenell, Die Blutezeit Der Deutschen Hanse, Vol. I, P.26.
(5) Quesenbery, The Institutional success of the German Hansa, P.15.

الألمان من ويزبي Wisby، فى جوتلاند، باستخدام قوتها لإجبار ملك النرويج على فتح منافذ لها.

ولقد أصبحت بيرجن، بعد ذلك مركزًا تجاريًا كبيرًا للتجارة النرويجية الخاصة بهم.

وقد نظمت هذه الكونفدرالية بحكمة مما أدى إلى تطورها تطورًا سريعًا[1].

كانت النرويج هى الدولة الإسكندنافية Scandinavia الوحيدة، التى تعد المنافس الأكبر والحقيقى للهانزا فى البحر فى القرن الثالث عشر الميلادى،إذ ظلت محافظة على استقلالها عن المدن الألمانية فى تجارة سمك الرنجة المزدهرة مع انجلترا وغيرها من الدول المطلة على بحر الشمال، وقد سعت إلى أن تجعل الهانزا Hanse خارج ميناء بيرجن Bergen، الميناء الرئيسى لصيد النرويجيين حتى عام 646هـ/ 1248م[2].

وليس من شك فى أن السبب فى ذلك يرجع إلى العلاقات التجارية المزدهرة بين الموانىء النرويجية ودول بحر الشمال خاصة إنجلترا، والتى جعلت النرويج مستقلة نسبيًا عن المدن الوندية (السلافية) الهانزية وعن لوبيك وفى العقد السابق لعام 648هـ/ 1250م حافظ النرويجيون على إبعاد الألمان عن بيرجن، الميناء الخاص بصيد سمك الرنجة على الساحل الغربى للنرويج[3]، وفى عام 646هـ/ 1248م ناقش الملك هاكون الرابع Haakon IV (1217-1263م)[4]، الاتفاق التجارى مع الهانزا من أجل الحصول على مكاسب كافية لتجنب وقوع مجاعة داخل البلاد[5]، خاصة وأنه فى عام 1250م كان فى وضع أجبره على عقد صلح مع لوبيك على أساس الحقوق المتبادلة لتجار كلا البلدين[6]، وعلى مدار الثلاثين عاما التى تلت هذا الاتفاق أصبح للألمان من

(1) Keppen, The world in the middle ages, Vol. II, P.482.
(2) Quesenbery, The Institutional success of the German Hansa, PP.15-16.
- عن ذلك أيضا انظر:
- Daenell, Die Blutezeit Der Deutschen Hanse, Vol. I, PP.26-27.
(3) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.387.
(4) هاكون الرابع هاكونسون Haakon IV Haakonsson عاش في الفترة (1204-1263م)، وتولى ملك النرويج (1217- 1263م)، وقد قام بتعزيز النظام الملكي، ورعاية الفنون وأحكم السيادة النرويجية أكثر على جرنيلاند Greenland وأيسلند Iceland. ويعتبر حكمه بداية العصر الذهبي (1217-1319م) في التاريخ النرويجي في العصور الوسطى. انظر:
- The New Encyclopedia, Vol. IV, P.821.
(5) Quesenbery, The Institutional success of the German Hansa, P.16.
(6) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.387. =

مدن البلطيق قدم راسخة فى ميناء بيرجن وفى غيرها من الموانىء النرويجية الأخرى، كما أصبحت الهانزا بهذه الاتفاقية هى القوة المسيطرة على التجارة النرويجية والتى واجهها النرويجيون بعد ذلك بوضع قيود تشريعية على جميع الأجانب فى عام 681 هـ/ 1282م[1]، إذ فى هذا العام تحركت الحكومة الملكية للنرويج ضد خطر السيطرة الألمانية عن طريق منع الأجانب الذين لا يستوردون الذرة أو الدقيق من تصدير الزبدة، أو الجلود أو سمك الرنجة[2]، كما قام النرويجيون بمهاجمة السفن الألمانية، لكن الألمان لم يقفوا مكتوفى الأيدى حيال ذلك بل قاموا بفرض الحصار التجارى، وتم منع صادرات الحبوب والدقيق والخضروات والجعة(البيرة) إلى النرويج وتم حجز السفن فى مضيق الدانمارك Denmark حتى تستجيب للأسطول الهانزي[3]، وعندما هاجم النرويجيون السفن الألمانية انفتح باب الصراع على مصراعيه وتطور فى عام 683هـ/ 1284م، إلى حرب بحرية، وتمكن الإيرل ألف إرلينجسون Alf Erlingsson، النرويجى من أسر عدد من السفن الألمانية، وقام الحصار الهانزي الدانماركى بقطع إمدادات الحبوب المتجهة إلى النرويج Norway، كما قاموا بإغلاق المضيق، أمام السفن النرويجية، وفى عام 684هـ/ 1285م، اضطرت النرويج إلى وقف القتال والاعتراف بالحريات التجارية التى كان يتمتع بها التجار الأجانب من قبل كما تكبدت خسائر فادحة[4].

وبذا نستطيع القول أنه فى أعوام قلائل أثبت الحصار التجارى نجاحًا تامًا وتلا ذلك معاهدة 694هـ/ 1294م والتى تم منح الهانزا خلالها حقوقًا تجارية كبيرة خولتهم ملكية فعلية لتجارة سمك الرنجة فى بحر الشمال لعشرات الأعوام بعد ذلك[5].

ومما سبق نستخلص أن الألمان تمكنوا عن طريق تطبيق قاعدة "بطىء لكن أكيد" من بسط نفوذهم على تجارة بيرجن من سمك الرنجة المملح وأيضًا على تجارة المنتجات الحيوانية فى أوسلو

= – عن ذلك أنظر أيضًا:

- Daenell, Die Blutezeit Der Deutschen Hanse, Vol. I, P.27.

(1) Quesenbery, The Institutional success of the German Hansa, P.16.
(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.387.
(3) Quesenbery, The Institutional success of the German Hansa, P.16.
(4) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, PP.387-388.
(5) Quesenbery, The Institutional success of the German Hansa, P.16.

Oslo[1]، وتونسبيرج Tonsbery[2].

وعلى الرغم مما سبق فإن الدبلوماسية كانت أحد المميزات الأساسية للهانزا، ففى بداية ظهور نشاط الهانزا فى العصور الوسطى قام التجار الألمان بحماية حقوقهم التجارية الممنوحة لهم على امتداد الطريق الشمالى، وكان الملوك يشجعون التجارة الخارجية فى ممالكهم وقاموا بمنح الهانزا حقوقًا مميزة، وعلى الرغم من أن الهانزيين كانوا يعرفون بتركيزهم الكبير على التجارة، إلا أن أكثر نجاحاتهم الاقتصادية ترجع إلى الضعف السياسى لشركائهم فى التجارة وسذاجتهم[3].

ومن المهم أن نذكر أن الحصار الألمانى الذى ضرب على المضيق قد لعب دورًا مهما ليس فقط فى جعل النرويج تعانى من الجوع، بل أيضًا فى إغلاق طريق التجارة الذى يمر بين الشرق والغرب فى وجه التجار غير الألمان، وعليه فإن المدن التى يسكنها رجال النقل من التجار Umlands Fahrer "وهم الذين يستخدمون المضيق"، وهى مدن كامبين Kampen[4]،وزول Zwoll[5]، تقدمت بالشكر للوبيك على مبادرتها الحازمة فى إبعاد جوتلاند، عن بحر الشمال وكذلك إبعاد النرويجيين،

(1) أوسلو Oslo: تُعد أوسلو عاصمة أكبر مدينة في النرويج وتتكون من مقاطعات متفرقة وتقع على قمة Oslo Fjord في اتجاه الجنوب الشرقي للمنطقة Skagerrak. عن ذلك انظر:
- The New Encyclopedia, Vol. VII, P.607.

(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.388.
- Daenell, Die Blutezeit Der Deutschen Hanse, Vol. I, P.27.
- تونسبيرج Tonsberg:تقع مدينة تونسبيرج جنوب شرق النرويج، على مشارف Tonsberg Fjorden، وتعتبر أقدم مدينة في النرويج، تأسست عام 871م وأصبحت= =مركزاً تجارياً مهماً، وقد بنى هاكونسون قلعته Tonsberghus هناك في القرن الثالث عشر الميلادي. عن ذلك انظر:
- The New Encyclopedia, Vol. X, P.44.

(3) Quesenbery, The Institutional success of the German Hansa, P.16

(4) كامبين Kampen: مقاطعة تقع في منتصف المنطقة الشمالية من أوفيريجسيل Overijssel، شمال وسط هولندا على نهر Ijssel بالقرب من بحيرة Ijsselmeer. عن ذلك انظر:
- The New Encyclopedia, Vol. V, P.681.

(5) زول Zwoll: عاصمة مقاطعة أوفيريجسيل Overijssel، تقع شمال وسط هولندا على نهر Zwarte. كانت عضواً في الرابطة الهانزية في العصور الوسطى حتى دمرت أسوارها عام 1674م خلال الحروب الهولندية. انظر:
- The New Encyclopedia, Vol. X, P.904.

والفلمنكيين والفريزين عن البلطيق[1].

يتضح لنا مما سبق كيف حرصت الهانزا وبشدة على إقامة مركزاً لها فى النرويج من أجل السيطرة على تجارتها وأنها لم تترك وسيلة لتحقيق ذلك إلا واستخدمتها سواء كان ذلك عن طريق استخدام القوة العسكرية – وإن كانت الهانزا قلما استخدمت هذه الوسيلة فى تحقيق أغراضها، أو عن طريق استخدام الحصار التجارى والذى أثبت فاعليته التامة، إلى جانب استخدام الطرق الدبلوماسية التى كانت تجيدها بدقة.

ويعد تاريخ انتصار الهانزا فى بيرجن، البداية المبكرة لتاريخ ملىء بالطغيان الشديد الذى شوهه العنف ونقض للمعاهدات المبرمة، ففى عام 778هـ/ 1376م منح الملك هاكون Haakon (1340-1380م)، التجار الألمان الحق فى التجارة البحرية فى جميع مدن وقرى ومرافىء مملكته، لكن على ما يبدو أن الألمان فضلوا حصر تجارتهم فى مدينة بيرجن التى كانت تحتوى على مرفأ متميز وكانت محصنة بمدرج مستدير من الجبال الشاهقة، أما عن المناخ فلم يكن فيه ما يدعو إلى التباهى اللهم إلا أن الأمطار كانت بها أكثر من الأماكن الأخرى فى السواحل النرويجية، ومع ذلك فقد كانت مركزًا لجميع المنتجات النرويجية القطبية، أما موقعها الجغرافى فقد جعلها مكانًا مطروقًا يصل إليه المسافرون من الشمال والجنوب، بينما كان مرفأها عميقًا جدًا حتى أن السفن ذات الغاطس الكبير كانت ترسى غالبًا أمام بيوت المدينة[2].

حققت التجارة الهانزية فى النرويج نموًا كبيرًا ومتطورًا مع ارتباط ذلك بتقدم القوانين، وتراجعت مكانة النرويجيين عبر البحار بسرعة كبيرة، لأنه منذ بداية القرن الخامس عشر الميلادى انحسرت حركة الشحن النرويجية ولم تحدث إلا مرة واحدة فقط، فى عام 871هـ/ 1466م فقد ذكر أنه وجدت فى هذا العام سفينة نرويجية فى Sluys[3]، وقد حل الألمان مكان الإنجليز فى بيرجن وأصبح لهم الآن مكاتب دائمة هناك وذلك على نفس النمط المتبع فى المكاتب الهانزية فى

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.388.
(2) Zimmern, The Hansa towns, PP.138 – 139.
(3) Sluys أو Sluis: مدينة في هولندا، عند زيلاند Zeeland، على الحدود البلجيكية. تبعد عشرة أميال شمال شرق بروج Bruges. عن ذلك انظر:
- Heilprin (A.), Geographical dictionary of the world in the early 20th Century with Pronouncing gazetteer, Part II, 1990, P.1719.

الفروع الأجنبية الأخرى وذلك فى Opslo وTunsberg من أجل حركة الاستيراد والتصدير من وإلى النرويج[1].

على أن هذا الأمر لم يتم بدون مقاومة من النرويجيين، بل على العكس من ذلك فقد دار الصراع بين الطرفين، خاصة وأن سكان بيرجن كانوا يعملون تجارًا منذ العصور الأولى، وفى عام 796هـ/1393م، قام "إخوان المؤن والتموينات Victual Brothers"[2]، بعملية سلب وحشية حتى كان من الصعب على هؤلاء السكان أن يتعافوا من آثار هذه الكارثة وفى عام 832هـ/1428م قام قرصان آخر يدعى بارثولورفوتBartholauer Voet، بمهاجمتهم ولكنهم استردوا متاجرهم بمساعدة الإنجليز، وهذا يعد دليلاً قويًا على أن هجومه كان مدعمًا من قبل الهانزا، هذا إذا لم تكن الهانزا نفسها هى التى قادت هذا الهجوم، وعندما رأى السكان سفنه قادمة لاذوا بالفرار، ومن ثم أصبح طاقم السفن قادرين على أن يرسوا بسفنهم دون مقاومة أو إعاقة، فنهبوا كل شيء، وصاروا حتى وصلوا قصر الأسقف ومكتبته، كما قاموا بنهب سفن النورمان[3]، التى وصلت هناك للقيام برحلة صيد صيفية، بعد ذلك حملوا السلع المسروقة إلى السوق وعادوا فى عيد الفصح لزيارة ثانية، وفى هذه المرة كان السكان على أهبة الاستعداد وقاوموا ببسالة، ولكن دفاعهم لم يجد فتم نهب المدينة مرة أخرى وقد أحرق القصر الملكى والقصر الأسقفى والعديد من المنازل الخاصة حتى صارت رمادًا[4].

---

(1) Daenell, Die Blutezeit Der Deutschen Hanse, Vol. I, P.27.

(2) إخوان المؤن والزاد Victual Brothers: هم مجموعة تقوم بتزويد وتخزين المؤن لمنحها للمواطنين. عن ذلك انظر:

- The New Webster international dictionary, Vol. II, P.1105.

(3) النورمان Normans: هم شعب الفيكنج القديم الذين هاجموا دول أوربا خاصة الإمبراطورية الكارولنجية والجزر البريطانية، ونتيجة للحروب المتواصلة تم منحهم المنطقة بين إنجلترا وفرنسا= =هذه المنطقة أصبحت وطناً لهم في عام 911م في معاهدة سانت كلير لذلك تغير مسماهم من الفيكنج إلى Northmen أو رجال الشمال وهو الاسم الذي عرفوا به في التاريخ فيما بعد. عن ذلك انظر:

- سميرة يونس عبد القادر، النورمان والدولة البيزنطية فى القرن الحادى عشر الميلادى، ط1، دار الكتاب الجامعى، القاهرة 1995، ص 14. ولمزيد من التفاصيل انظر:

- Haskins, (H.), The Normans in European History, New York, 1966.

(4) Zimmern, The Hansa towns, P.139.

وهكذا نرى أن النرويجيين قاوموا الغزو أو التدخل الهانزي فى أراضيهم، إلا أن هذه المقاومة لم تجد نفعاً، إذ نجح الألمان فى نهب ثروتها، حتى أصبحت بيرجن فى أشد حالات الضعف وأصبح بمقدور الغزاة فرض شروطهم عليها، وأصبح لزامًا على المدينة التى ظلت خمسمائة سنة تتحكم فى طريق الجرينلاند، أن تترك المعاملات التجارية البحرية، أضف إلى ذلك أن المواطنين رأوا أنفسهم مجبرين على رهن أراضيهم لتجار الهانزا فى مقابل إمدادهم بمتطلبات الحياة الضرورية وحيث أنهم لم يكن بمقدورهم فك الرهن، إلا قليلاً إذ أن مدينة بيرجن Bergen سقطت تدريجيًا فى أيدى التجار الأثرياء[1].

لم يقف الأمر عند ذلك الحد، بل إن الألمان قاموا بطردهم من مساكنهم القديمة فى بيرجن القديمة والتى شكلت جزءً من المدينة المعروفة باسم الجسر Bridge، وقد خطط السكان للإقامة على ظهر المرفأ فى الجانب المقابل للطريق الهلالي بالمدينة، لكن طمع الهانزيين الشره لم يمنعهم من الإقامة هناك، فالغزاة طمعوا فى ذلك أيضًا لأنفسهم وأخيرًا صار الميناء كله فى قبضتهم[2]، وأقام التجار الألمان إقامة دائمة فى بيرجن ومارسوا التجارة بين النرويج وصولاً إلى الغرب[3].

ونتيجة للتزايد المستمر للسكان من الألمان العاملين بالتجارة وكذلك الكتبة والصبية والبحارة والعاملين الذين هيمنوا تمامًا على المدينة، وعندما طلب منهم الخضوع للسلطات المحلية طالبوا بالحصول على امتيازات الأجانب، كما رفضوا دفع ضرائب المدينة، رغم أنهم كانوا يتمتعون بحقوق المواطنين وفى الوقت نفسه كانوا يدفعون الرسوم الجمركية المخفضة، كما قاموا بحماية أعداء الملك علانية، وقطعوا أشجار الغابات، واقتحموا منازل الأجانب أو الغرباء بشكل تعسفى وباختصار فإنهم كانوا يقترفون كل جريمة ويفلتون من العقاب، والحال فى بيرجن كان مشابهًا لما عليه فى لندن ونوفجورود فكان لانتصار الهانزا أن تكونت منهم دولة داخل الدولة[4]، فقد احتكر الألمان النقل وفقا للامتيازات التى حصلوا عليها وقد تناقض ذلك مع مصلحة أهل البلاد من البائعين المحليين وتجار التجزئة، خاصة بعد سيطرة الألمان وتحكمهم فى الصناعة، إذ تم إنشاء مكاتب لهم فى

(1) Zimmern, The Hansa towns, PP.139-140.
(2) Zimmern, The Hansa towns, P.140.
(3) Daenell, Die Blutezeit Der Deutschen Hanse, Vol. I, P.27.
(4) Zimmern, The Hansa towns, P.140.

جميع الأماكن المتاحة فى السوق النرويجية، وذلك فى بيرجن Bergen، و Opslo، وTunsberg[1].

إلى جانب أن الهانزيين كانوا يقومون بأعمال وحشية يخالفون بها قيادة الهانزا وأصبح أمر الحفاظ على النظام فى بيرجن واحدة من المشكلات العويصة فى تاريخ الهانزا، وعلى ما يبدو أن المناخ القاسى كان له تأثير ضار وترك بصماته على طبيعة تكوين الشخصية الألمانية الخشنة والصلبة[2]، الأمر الذى يجعلنا ندرك مدى المعاناة التى عانى منها النرويجيون فى ظل سيطرة الهانزا الاحتكارية داخل النرويج خاصة فى بيرجن، فكان المرفأ بأكمله تحت سيطرة الألمان.

وقد تم وصل الجانبين ببعضهما بما يسمى درب صناعة الأحذية "أو درب الإسكافى" Shoemaker's Alley، وكان الغرباء لهم مساكن فى حى سكنى فى بيرجن أصبح فيما بعد مسكنًا لجميع الشخصيات الفظة والمشكوك بها، وهؤلاء دافعوا عن الاحتكار الألمانى حسب أهوائهم مما يعنى أنهم دافعوا عنه بالفتوة وبالملاكمة والمدى (السكاكين) فنرى أهم سوق للأسماك كان موجودًا هناك ومن ثم أصبح بمقدور سكان بيرجن أن يصلوا إليه عبر هذا الطريق، وإلى أن يحصل الألمان على القطفة الأولى من البضائع التى أتت حديثا فإن المقيمين بدرب الإسكافية لم يسمحوا لأحد بالمرور، والويل لمن حاول خرق هذا الحظر، وعلى ذلك تم كسر قوة الشعب الشمالى تماما، وهم أحفاد النورمان – وهم شعب كان مولعًا بالحرب ودمر أوروبا قديمًا.

أما جانب الميناء والذى يعرف باسم الجسر Bridge – فقد سماه السكان باسم جسر القمل Bridge of the Iice ازدراءً له، وقد كان يعد محطة تجارية فعلية للهانزا، وكان يتكون بما يسمى بالحدائق فهناك تسعة منها خاصة بمجمع سانت مارتين St. Martin، وثلاثة عشر منها خاصة بالقديسة مارى St. Mary وكل حديقة من الحدائق كانت معزولة عن الأخرى وكانت تشكل مركزاً مستقلاً يحمل شارة واسمًا مثل " العباءة The Cloak" وقصر بريمن Court of Bremen والشارة العامة للجسر كانت فى غاية الغرابة فقد كانت تمثل نصف النسر الإمبراطوري الألمانى، وفى مقابلة سمكة الرنجة المتوجة، وكل حديقة من الحدائق كانت متصلة بالبحر

(1) Daenell, Die Blutezeit Der Deutschen Hanse, Vol. I, PP.27-28.
(2) Zimmern, The Hansa towns, PP.140-141.

عن طريق قنطرة متحركة ومن ثم يمكن للسفن أن ترسى أمامها، أما الدور الأرضى فيتكون من ورش ومستودعات (مخازن) كانت فى البداية عبارة عن غرف نوم للسكان المقيمين، وفوقها المطابخ، وخلف المنزل يوجد سراديب (مخازن تحت الأرض) عظيمة وفوقها كان يوجد ما يسمى بـ Shutting الخرائب وهو مكان كبير ليس به نوافذ يستخدم كقاعة لاجتماعات المجلس والفتحة من هناك هى حديقة المطبخ[1].

سيطر على التجارة فى بيرجن المدن الوندية وهى: لوبيك وفيسمار وروستوك، أما سمك الرنجة فقد كان يعد أحد الأعمدة الرئيسية للتجارة مثل الرنجة فى سكانيا Scania وبمرور الأيام أصبحت بريك بيرجن Briiek of Bergen – هى المركز الخاص بإقامة التجار الألمان داخلها– وهى مدرسة تدريبية كبيرة للصبية الصغار وقد كان يتم إيفادهم إلى هناك من قبل معلميهم للحصول على الخبرة العملية[2].

كان المجلس الأعلى يقوم بالإشراف على المصنع بأكمله ويتكون من عضوين من مجلس البلدية وثمانية عشر عضوًا وسكرتيراً يجب أن يكون متخصصًا فى القانون، وعندما ينشب الصراع بين أعضاء أية عائلة من العائلات أو بين السكان والمسافرين يحال الأمر إلى عضوى مجلس البلدية لاتخاذ قرار فى هذا الصدد، أما القضايا المعقدة فكانت ترسل إلى المجلس التشريعى الهانزى العام.

كان من مهام عضوى مجلس البلدية مراقبة التجارة والضرائب وجميع ما يتعلق بالصفقات التجارية للمستعمرة[3]، على أن أعضاء المجلس التشريعي كانوا يقومون بالتشريع في الأحوال المدنية، التي لا تقتصر على التجار فقط؛ بل وتمتد إلى الحرفيين، على أن القضايا الجنائية تحال إلى السلطات النرويجية[4].

وفى عصر الرخاء الأعظم كان مصنع مدينة بيرجن يضم ما يقرب من ثلاثة آلاف نفس وجميعهم تعهدوا بالالتزام بالعزوبية وهذا أمر مفروض عليهم ومن يخرقه يوقع عليه عقوبات قاسية، ومكمن الخوف يرجع إلى أن الزواج من نساء مواطنات يمكن أن يؤدى إلى إفشاء الأسرار الهانزية أو

(1) Zimmern, The Hansa towns, PP.141-143.
(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.112.
(3) Zimmern, The Hansa towns, P.143.
(4) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.112.

يستحث الرجال على الإقامة الدائمة فى هذا المكان ومن ثم يصبح ذلك مفسدًا للصفات الطبيعية، أما أعضاء الهانزا فيمنعوا منعًا باتًا من قضاء ليلة خارج المصنع، وفيما يتعلق بالحراسة فقد كانت مشددة يقوم عليها خفراء مسلحين وكلاب متوحشه[1]، ولم تكن النساء تعاملن معاملة لطيفة فى بريك Briieke، إلا أن هذا الأمر إذا كان قد قضى على مشكلة، لكنه تسبب فى أخرى، فقد شجع ذلك على المقامرة، والسكر، واللعب الخشن، وكان من الصعب الحفاظ على قواعد ضبط سلوك العزاب الجامحين[2]، وكان الهدف العام فى منع الاختلاط الاجتماعى مع السكان الأصليين من أجل الحفاظ على أمن المجتمعات وسريتها[3].

وهؤلاء السكان كانوا فى الغالب يعملون كوسطاء للتجار فى مدن البلطيق، وبعد إقامة قصيرة تستمر لمدة عشر سنوات يتم إجبارهم على العودة إلى بلادهم لإفساح مكان للقادمين الجدد والذين يتدرجون بعد ذلك فى الرتبة فيبدأ الواحد منهم مثلا بالعمل كساع ثم يتدرج فى العمل حتى يصل فى آخر الأمر إلى عضو مجلس البلدية هذا إذا أسعده الحظ.

يعتبر ما قدمناه نوعًا من التنظيم الهرمى والذى يتم من خلاله تنفيذ المهام بشكل صارم، وفيما يتعلق برسوم دخول السفن والغرامات والجزاءات المالية فإنها كانت تدخل ضمن النفقات العامة للمصنع وكل مدينة تدفع أموالاً للسفينة والأجور وتسليح ممثليها أو مندوبيها، ومع ذلك فلم يكن يتم السماح لجميع أعضاء الهانزا بالمتاجرة مع بيرجن، فالشروط كانت باهظة ومكلفة عن عمد[4].

يتضح لنا مما سبق كيف كانت الهانزا مسيطرة ومحتكرة للتجارة فى بيرجن بدليل ما نالته هذه المدينة من نهضة كمركز مهم للتجارة والصيد، إلى جانب سيطرتهم على Oslo فى الجنوب الشرقى للنرويج وعلى Tonsberg كذلك وعلى الرغم مما بذله النرويجيون من محاولات لصد الغزو الهانزى باعتبارهم كانوا المنافس الأول لها بين الممالك الإسكندنافية الثلاث إلا أنهم لم ينجحوا في ذلك. بل أنهم تحت الضغط والحصار التجاري وحتى لا تتعرض بلادهم للمجاعة اضطروا إلى عقد

(1) Zimmern, The Hansa towns, PP.143-144.
(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.112.
(3) Quesenbery, The Institutional success of the German Hansa, P.57.
(4) Zimmern, The Hansa towns, P.144.

الاتفاقات معهم ومنحهم الامتيازات متضمنة حقوقًا مساوية للسكان المحلين بل وتعدتها فى بعض الأحيان الأمر الذى يجعلنا ندرك مدى القوة والمكانة التى حازتها الهانزا داخل بيرجن بالنرويج.

4 – مركز نوفجورود Novgorod:

مثلت نوفجورود أحد مراكز العصبة الهانزية الخارجية فى روسيا، إذ كانت تقع فى الجانب الشرقى لطريق التجارة الهانزية فى الأراضى الروسية، ولعل الأمر بدأ عندما قام الأمير جاروسلاف Jaroslav بعمل على جانب كبير من الأهمية، ألا وهو القيام بمنح امتيازات تجارية للألمان فى نوفجورد، وذلك عام 585 هـ/1189م كما منحهم الحق فى إنشاء بيترهوف Peterhof فى نوفجورود والتى أصبحت واحدة من المحطات الأربع الخاصة بالهانزا فى الخارج[1]، والمقصود ببترهوف هو ساحة القديس بطرس St. Peter's Court والتى تم الانتهاء منها فى عام 597هـ/1200م، وقد تم إحاطتها بجدار خارجى كإجراء وقائى ضد أى هجوم مباغت تشنه الغوغاء الروس الصاخبين[2]، وقد أقامها الهانزا لتكون مؤسسة دائمة لهم فى نوفجورود، والتى احتكرت منذ ذلك الوقت حركة التجارة البحرية فى البلطيق[3]، وليس من شك فى أهمية الامتيازات التى حصلت عليها الهانزا فى نوفجورود من أمرائها وذلك لخدمة نشاطها التجارى، لذا سعى التجار الألمان إلى التفاوض مع أمراء نوفجورود من أجل توقيع الاتفاقيات التجارية، إذ أن هذه الاتفاقيات التجارية بين ألمانيا ونوفجورود بصفة خاصة، والاتفاقيات التجارية بين ألمانيا وروسيا بصفة عامة تشكل الأساس لتحديد مدى نسبة مشاركة التجار الألمان مع الروس، وفى هذه الحالة يمكن معرفة حجم التجارة إلى نوفجورود وداخلها على أساس مدى السلطات والتجار بها[4]، وعندما نطلع على مثل هذه الاتفاقيات التجارية سنجد أن أكثر المطالب تكرارًا هو ضمان حرية الحركة الكاملة للأجانب كضيوف للجانبين، وضمان تأمين الطرق والعبور، لأنها عادة ما تكون هى المطالب التى يجب أن يتم التأكيد

(1) Quesenbery, The Institutional success of the German Hansa, P.30.
(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.112.
(3) Perroy, Le Moyen Age, Vol. III, P.357.
– إدوارد بروى، القرون الوسطى، جـ/3، ص396.
(4) Goetz, Abhandlungen des Hamburgischen kolonialins tituts, Band. XXXVII, P.3.

عليها ومطلوبة بإلحاح[1]، خاصة أن الألمان كانوا فى حاجة إلى التمتع بالأمن وذلك عند قدومهم إلى نوفجورود وخلال فترة إقامتهم هناك، إذ أنه كان يوجد داخل ساحة سانت بطرس، مراكز لإيواء التجار وحمام كذلك، بل وسرداب يستخدم كمستودع، لتشوين البضائع، وعندما تمتلئ السراديب كان التجار يقومون بتشوين بضائعهم فى الكنيسة التى كانت تقام بها الطقوس الدينية والموجودة داخل الساحة كذلك، لذا أصبح لزامًا استصدار قانون يمنع تخزين أى شىء على ارتفاع المذبح، حيث كان باب الكنيسة يغلق كل ليلة ولا يسمح لأى روسى بالبقاء داخل الكنسية[2].

ولعل ذلك كان رغبة منهم فى تأمين التجار الألمان المتواجدين داخل الساحة حتى لا يتعرضوا لأذى داخلها، ففى إحدى الوثائق المهمة التى منحت للألمان فى عام 627هـ/ 1229م نصت على أنه عند قدوم التجار الألمان أو الجوتلاند إلى جزيرة بيركن Birken، التابعة لمملكة ملك نوفجورود، فإنهم يكونوا تحت سلام وحماية الملك ومواطنى نوفجورود، ويكون مواطنوا نوفجورود مسئولين فى نفس الوقت عن أى شىء يحدث لهم داخل المدينة، وكذلك يكون للتجار نفس الحق فى السلام والحماية عند العودة إلى أوطانهم ومغادرتهم، كما أنه عندما يأتى التجار إلى المياه التى تدعى نو Nu، فإنهم يستمتعوا بنفس الحرية التى حصلوا عليها فى الماضى[3]. خاصة وأن نصوص المعاهدات تنص بصفة رئيسية على منح حق الحماية القانونية للغريب، ولعل ذلك يتعلق بالقوانين المدنية دون الجنائية، إذ أن القوانين المدنية تختلف عن الجنائية، ولكن كثيرًا ما تختلط بعضها بالبعض وترتبط مع بعضها البعض بصورة متبادلة، إذ أهم مبدأ تم تنفيذه على التاجر فى كلا الجانبين هو عدم الاستيلاء القسرى أو عدم التعرض للتاجر أو الاستيلاء على بضائعه بالقوة ولا

(1) Goetz, Abhandlungen des Hamburgischen kolonialins tituts, Band. XXXVII, P.9.
(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.112.
– لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر:
- Goetz, Abhandlungen des Hamburgischen, Band. XXXVII, PP.84-85.
- عن منح الحرية للتجار من أجل إقامة المنازل. انظر:
- Goetz, Abhandlungen des Hamburgischen, Band. XXXVII, PP.117-118.
(3) Privileges Granted to German Merchant at Novgorod, in: Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1229, P.29.

يؤخذ أحد المارة الأبرياء فى جريمة، كما يجب على المدينة أن تقوم بحماية الرجل الغريب نفسه على اعتبار أنه غريب فى البلد، وأنه تحت حمايتها كما ينبغى أن تمنح الرجل الحق فى عرض شكواه دون تعرض للقانون، كما هو منصوص عليه فى كثير من الأحيان[1].

ولم يقم التاجر الألمانى إقامة دائمة فى نوفجورود رغم هذه التأمينات فالتجار الألمان كانوا يصلون بصحبة قافلتين إحداهما فى فصل الصيف والأخرى فى فصل الشتاء وكانوا يغادرون جميعًا بعد قضاء أسابيع قليلة، وفى الفترة الواقعة بين القافلتين فإن الساحة تكون خالية تقريبًا وتترك تحت رعاية العتالين[2].

وعندما يدخل زوار الصيف، حدود نوفجورد يكونوا تحت حماية معاهدة السلام القديمة، وإذا رغبوا فى تقبيل الصليب كعلامة للسلام والألفة والحب يسمح لهم الملك ويأمر الدوق بذلك[3].

نظمت المعاهدات كل ما يتعلق بشأن هؤلاء الزوار سواء أماكن نزولهم أو إقامتهم وما عليهم دفعة وما إلى ذلك، إذ نصت الوثيقة السابقة على أنه عندما يأتى زائرو الصيف إلى تورنت Torrent التى تسمى فورستش Vorsch، فإن رجال المعدية يأخذونهم فى الحال دون تأخير إلى فنادق الصيادين، وعند وصول كل قارب يجب أن يدفع لرجال المعدية أربعة أرغفة من الخبز ودلو من الزبد، وإذا لم يرغبوا فى الخبز يدفع عن كل رغيف اثنين من الكاينون Kunen[4]، وبدلا من

(1) Goetz, Abhandlungen des Hamburgischen kolonialins tituts, Band. XXXVII, PP.10 – 11.

(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.112.
– عن رحلات الألمان إلى نوفجورد (قافلتى الصيف والشتاء) انظر:
- Goetz, Abhandlungen des Hamburgischen kolonialins tituts, Band. XXXVII, PP.81 - 83

(3) Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol.II, A.D. 1229, P.29.
– قد كان يتم إقامة حفل دينى لتقبيل الصليب. عن ذلك انظر:
- Goetz, Abhandlungen des Hamburgischen kolonialins tituts, Band. XXXVII, P.86.

(4) الكاينون Kunen: يعرفها Coulson و Cave بأنها ربما تعنى باللغة البولندية حيوان الدلق، وهى مأخوذة من مفرد Kuna.عن ذلك انظر:
- Cave, Coulson, A source Book, P.428.

الزبد ثلاث رؤوس من حيوان الدلق Martens[1] وكل رجل من رجال المعدية يتسلم ثمانية رؤوس من حيوان الدلق وأغطية وبدلا منها يأخذ ثلاثة رؤوس أخرى من حيوان الدلق، وزوار الصيف سيلاحظون أن قانون دفع الرسوم فى هذا التوقيت هو نفس قانون دفع الرسوم لزوار الشتاء[2].

يتضح لنا مما سبق أن الألمان فى نوفجورود استخدموا بجانب الأموال وسائل أخرى للدفع، فكان استخدام جلود الحيوانات كوسيلة من وسائل الدفع أمرًا واردًا[3]، كما فى الوثيقة إلى جانب أرغفة الخبز والزبد والأغطية وغيرها مما قد يحتاجون إليه إذ ليس من شك فى أهميتها فى مناخ بارد مثل روسيا، إضافة إلى أن الوثيقة أوضحت أنه توجد أماكن لإقامة هؤلاء الزوار متمثلة فى فنادق الصيادين التى كانوا يحملون إليها مباشرة وهو أمر على جانب كبير من الأهمية للتجار والتجارة كما وضح لنا فى عنصر المستودعات والمحطات التجارية، مع التأكيد على أنه تم توحيد رسوم الدفع الخاصة بزوار الصيف والشتاء على حد سواء إذ عندما يأتى نزلاء الشتاء إلى تورنت Torrent التى تسمى فورسش Vorsch، يتم إعلام رجال المعدية الذين يعرفون بـ " المساعدين" Vorschkerle لذلك يأتى المرشدون فى الصباح مع ضرورة وجود غلاية كبرى ليطهى لهم الطعام فى الصباح وبعد الانتهاء من إعداده يقوم رجال المعدية بمساعدة التجار بسرعة، ولا يتدخل أحد منهم فى ضوء المراكب ما عدا بعض الرجال الأقوياء والمدربين الذين يقومون بالاهتمام ببضائع النزلاء، وعندما يصل رجال المعدية إلى فندق الصيادين يدفعون لهم ثمانية رؤوس من حيوان الدلق وكذلك زوج من الأغطية أو ثلاثة رؤوس من حيوان الدلق بدلاً من الأغطية حتى يقوموا بمساعدتهم مباشرة[4].

إذا فإن رجال المعدية يقومون بمساعدة التجار الألمان الذين يقدمون عليهم فى فصل الشتاء

(1) حيوان الدلق Martens: حيوان السمور، وهو نوع من الحيوانات العديدة آكلة اللحوم، مثل بن عرس من جنس Martes، من عائلة Mustelidae، يوجد في كندا وأجزاء من الولايات المتحدة والمنطقة القديمة من أوربا ومنطقة الملايو. عن ذلك انظر:
- The New Encyclopedia, Vol. VI, P.651.

(2) Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1229, P.29.

(3) Goetz, Abhandlungen des Hamburgischen kolonialins tituts, Band. XXXVII, PP.80 -81.

(4) Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1229, P.29.

مقابل نفس ما يدفعونه عندما يأتون فى الصيف.

كما أنه عندما يأتى الزوار إلى المكان المسمى gesteult وهو مكان مخصص للضيوف، فإن لكل سفينة تدفع ماركًا واحدًا كرسم لدخولها، أما المحملة ببضائع اللحم والدقيق والقمح أو الشعير تدفع نصف مارك كرسم مرور ولكن السفينة المحملة ببضائع خفيفة لا تدفع شيئًا، ويقوم جامعوا الضرائب أو الرسوم بفحص كل السلع وتحديد ما يجب أن يدفع عليه الرسوم، والتى لا تدفع إلا بعد وصول السلع إلى نوفجورود[1].

مما سبق يتضح لنا أنه كان هناك تفاوت فى مقدار ما يفرض على كل سلعة حسب نوعيتها، وحسب ما يقرره جامعوا هذه الرسوم، على أن التجار الألمان كانوا حريصين وبشدة على الحصول على الامتيازات داخل روسيا، مثل الحصول على حق ممارسة البيع بالتجزئة داخلها كما هو الحال فى المناطق التجارية الأخرى، وتأمين طرق التجارة والشعب التجارية، والسلع، والمرور، والرسوم، واللوائح الخاصة بالأوزان والمقاييس وكلها أمور تمثل شرطا أساسيا فى كل مكان وتحمل نفس القدر من الأهمية لتنمية التجارة[2]، إذ تم التفاوض بين الألمان الروس من أجل تحديد الأوزان والمقاييس الملائمة والتى تصلح للتعامل، ومن ذلك التخلص من الأوزان الرديئة، إذ تقرر كسر وحدات الوزن قليلة القيمة وعدم استعمالها وأن يتم إصلاح الأوزان والتى تصلح للاستخدام إلى جانب أن الألمان نجحوا فى الحصول من الروس على الحق فى استخدام الأوزان الألمانية بدلا من الروسية، فتم طرحها ووضعها للاستخدام[3].

وإلى جانب ما سبق فإنه من أجل تسهيل العمل مع الروس، تم توفير مترجم داخل الساحة[4]، ولأن التاجر الألمانى داخل روسيا يعتبر فى بلد أجنبى ولا يتحدث لغته، ولا يعرف هذه اللغة إلا فى حالات استثنائية جدًا، كما لم يستطع التغلب على هذه الظروف الصعبة إلا فى

(1) Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1229, P.29.
(2) Goetz, Abhandlungen des Hamburgischen kolonialins tituts, Band. XXXVII, P.12.
(3) Goetz, Abhandlungen des Hamburgischen kolonialins tituts, Band. XXXVII, PP.76 -77.
(4) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.112.

حالات استثنائية كذلك[1]، ومن هنا ظهرت أهمية وجود مترجم معهم داخل الساحة حتى يستطيعوا التعامل مع الروس خاصة أن روسيا لم تكن مثل غيرها من الأماكن التجارية الأجنبية التى عاش فيها الألمان واختلطوا بسكانها وعاشوا كمواطنين[2]، إلا أن الزوار الألمان استطاعوا التغلب على ذلك لأنهم ظلوا معًا فى نوفجورود يتبعون النظام الألمانى، ويطبقوا قوانينهم الخاصة داخل المحطة الخاصة بهم[3]، إلى جانب تمتعهم بكافة الامتيازات التى حصلوا عليها من الجانب الروسى من ذلك أنه يحق لهؤلاء الضيوف "أو النزلاء" من بداية حدود نوفجورود استخدام الغابات لقطع الأشجار التى يحتاجونها فى الذهاب والعودة[4]، إلى جانب أنه تم تنظيم العلاقة بين زوار ورجال المعدية، من ذلك أنه عندما يضع الزائر أغراضه فى القارب ثم يتعرض هذا القارب للخطر أو التحطم فلا يعتبر رجال المعدية مسئولين عن ذلك أمام الضيف، ولكنهم يكونوا مسئولين عن المدة التى قضوها فى تحميل الأشياء، بينما الزوار هم من يتحملوا الأضرار التى قد تلحق بهم[5].

كما تم منحهم حق المتاجرة بحرية والحماية كذلك فى نفس الوقت، من ذلك، أنه عندما يصل التجار إلى مياه نو Nu، يطبق عليهم ويتمتعوا بالحرية والسلام الذى سبق وطبق عليهم فى الماضى ويتاجروا بحرية مع الكارولنجين Careliaus وأهل Ingria[6]، كما أنه عندما يدخل الزوار إلى نوفجورد تحمل المركبات بالبضائع ويدفع خمسة عشر من الكاينون Kunen، لكل حمولة

(1) Goetz, Abhandlungen des Hamburgischen kolonialins tituts, Band. XXXVII, P.13.

(2) مثلما حدث مع الألمان فى بروج Bruges حيث لم يقتصر إقامتهم على أماكن معينة، بل كانوا يعيشون فى المدينة، حيث شعر التجار الهانزيين بالراحة داخل بروج عن غيرها من البلدان الأجنبية، وذلك لأنهم لم يكونوا بحاجة إلى مترجم يترجم لهم عن السكان الأصليين، لأنه كما ذكرنا من قبل فإن اللغة الألمانية العامية فى العصور الوسطى كانت أشد قربًا للفلمنكية Flamish .عن ذلك انظر:

- Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, PP.113-114.

(3) Goetz, Abhandlungen des Hamburgischen kolonialins tituts, Band. XXXVII, PP.13-14.

(4) Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1229, P.29.

(5) Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1229, P.29.

(6) Ingria: الإنجيريان يسكنون وادي الويزر في مقاطعة سكسونيا بألمانيا ويحدهم شرقاً الاستفاليين. عن ذلك انظر:

- Omar, The Dark Eges, London, 1914.

مركب ويتم ذلك خلال خمسة عشر يوما، ويدفع أهل جوتلاند Gothland خمسة عشر كاينون لسحب بضائعهم، وعندما يغادر الزوار ساحة الألمان يدفعون عن كل قارب نصف مارك كاينون Mark kunen لنزولهم إلى النهر[1]، كما يتم تحريرهم وحمايتهم من فرض أى قيود عليهم من ذلك أن ساحة الألمان ورجال جوتلاند يتمتعون فيها بالحرية هم وضيوفهم فإن أى من مواطنى نوفجورود لا يمكنهم فرض أى قيود عليهم، وكذلك أراضى النزلاء يجب أن تكون حرة، لذا إذا ارتكب أى منهم أية إساءة وهرب إليهم عليهم ألا يتخلوا عنه بل يجب أن يدافعوا عنه لأن هذا هو قانون كنيستهم[2]، خاصة أن البعثة التجارية إلى روسيا قد اتخذت مجموعة تدابير وقائية لصالح التاجر الألمانى والتى سعت لتحقيقها، إذ أن التاجر لابد أن يتم تأمينه من جميع الأخطار التى تهدده، بسبب علاقاته الوثيقة مع الروس، فقد كانت الرابطة الهانزية تجد مصلحة كبيرة بين النظام وروسيا[3].

ومن أبرز قوانينهم منع البائع المتجول فى المدينة والمعروف باسم Schelke، من دخول الأماكن المخصصة للجوتلاند والألمان ولا يسمح بذلك إلا لرسول الدوق الذى يمكنه ارتياد هذه الأماكن وفى حالة إذا ما قام شخص من الروس بالإساءة إلى أحد الضيوف فعليه أن يقوم بإبلاغ الدوق أو رئيس المدينة وهم بدورهم يتخذون التصرف المناسب، ولكن إذا حدث العكس وأساء الضيف إلى أحد الروس فيتم إبلاغ عضو المجلس التشريعى التابع له الضيف ولا يستخدم معه القوة ولكن عضو المجلس التشريعى التابع له يعرض المساعدة على المتهم ليعرف المبررات، كما ان الحجج والأعذار من الزوار من الروس، يجب أن تتم داخل محكمة سانت حنا St. John قبل أن يقوم الدوق أو رئيس المدينة وعضو المجلس التشريعى بإخبار مواطنى نوفجورود وليس غيرهم، وكذلك الحارس الذى يدعى biriz فلم يكن له الحق فى دخول هذه المحكمة ولا يقف على بابها طالما أنه ليس خاضع للقانون القديم[4].

وهكذا تعددت صور التأمين للتجار الألمان داخل نوفجورود، وليس من شك فى أن هذا

(1) Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1229, P.29.
(2) Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1229, P.29.
(3) Goetz, Abhandlungen des Hamburgischen kolonialins tituts, Band. XXXVII, PP.12-13.
(4) Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1229, P.29.

كان بفضل الامتيازات التى حصل عليها التجار الألمان وما بذلوه من جهد، ولعل صاحبة الدور الأكبر فى هذا الشأن هى مدينة لوبيك، التى لعبت دورًا مهما فى تطوير التجارة الروسية الألمانية، منذ وقت مبكر باعتبارها المسئولة عن حركة المرور الخاصة فى كلا الجانبين، وربما يحدث أن يقوم التجار من لوبيك بالسفر إلى روسيا، ومن مناطق مختلفة فى ألمانيا، على أن المسئولية الكاملة لهذه التجارة كانت فى أيدى تجار اتحاد جوتلاند خصوصًا لوبيك، حيث أنها مثلت أهم ميناء بل وأهم قاعدة فى ألمانيا لمنطقة التجارة العظمى القادمة من الشرق[1].

ومن خلال اتحاد الألمان بهذه الصورة وتحت زعامة لوبيك فقد تمكنوا من الحصول على الامتيازات التجارية فى المناطق الخارجية ومنها نوفجورود بالتحديد، حتى أن الزوار تمكنوا من بيع سلعهم بحرية وبشكل حيادى للذين يأتون إلى أراضيهم لأنه لا يوجد فرق فى أن يتاجروا مع النزلاء أو مع أهل نوفجورود، وكانت حركة البيع والشراء تتم بهذا الشكل داخل الأراضى حتى أن التجار لم يخسروا شيئًا[2]، رغم أن بعض السلع قد تكون محددة السعر، إلا أن أغلب التعاملات كانت تقوم على أساس المقايضة[3]، كما لاحظنا من قبل، إلى جانب أنه تم منحهم الحق فى ضبط الموازين مرتين فى العام لتحقيق المنفعة وبخاصة موازين الفضة، والسلع التى يأتى بها الزوار، يجب أن يتم وزنها فى ساحة الوزن، إذ كانت تنصب الموازين وكان القائم على الوزن أو الوزان يأخذ تسعة قطع من الجلود مقابل عمله، أما بالنسبة للبضائع أو السلع التى يشتريها الزوار من الروس، فعلى الروس أن يدفعوا نفقة الوزن دون أن يحمل الزائر أية نفقات لأن الزوار عليهم ألا يقدموا للوزان أكثر من تسعة قطع من الجلود، وبغض النظر عما يقرره الوزان، وبغض النظر عن الأشياء الموزونة فإنه يقوم بعملية الوزن بمنتهى العدالة لكل من الطرفين بعد أن يقوم بتقبيل الصليب للتأكيد على كلامه.

أما بالنسبة لوزن الفضة فإن الوزان لا يأخذ أجرة من هؤلاء الضيوف، وأيا كانت نوعية تلك الفضة فإن الفاحص يأخذ من الزائرين مقابل اختبار السبيكة الفضية من الضيف الذى عندما

(1) Goetz, Abhandlungen des Hamburgischen kolonialins tituts, Band. XXXVII, P.74.
(2) Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1229, P.29.
(3) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.112.

يقوم بوزن الفضة فإن الميزان لابد وأن يكون على مستوى واحد لكن ربما يكون هناك وزنًا أخر إذا كان ذلك من مصلحة الزائر، وإذا قام الضيف أو الزائر ببيع الفضة الخاصة به إلى الفاحص كان عليه ألا يأخذ ما يدفعه له الوزان مقابل فحصه وعليه فإن مواطنى نوفجورود هم المسئولون عن ذلك[1].

وذلك رغبة منهم وتأكيدًا على تحقيق العدالة لجميع الأطراف دون الإضرار بأى منهم.

كما نصت الوثيقة كذلك على أنه عندما يغادر زوار الصيف والشتاء الساحة ويصلوا إلى تورنت Torrent من الممكن أن يستعينوا بمرشد حسب رغبتهم ويقدموا له ثمانية رؤوس من حيوان الدلق ورغيف من الخبز وإذا امتلك الضيوف القادمون فى فصل الصيف أو الشتاء خيولاً فلابد أن تقدم لها الأعلاف مجانًا ولهم الحرية فى استخدامها فى حمل بضائعهم داخليا وخارجيًا، وأن يسمحوا لإخوانهم باستخدامها[2].

يتضح لنا مما سبق أهمية الامتيازات التى حصل عليها التجار الألمان الذين يأتون لزيارة نوفجورود فى رحلتى الشتاء والصيف، على أن الانطباع السائد هو أن الظروف فى نوفجورود أو الأحوال فيها كانت بدائية وكان العمل يجرى وفقًا لطقوس معينة لا يسمح بالخروج عليها[3]، ومع ذلك كانت روسيا تحتل مكانة مهمة جدًا بالنسبة للهانزا نظرًا للسلع المهمة التى كان يقوم التجار بجلبها من هناك كالجلود والفراء Lejer والشحم والشمع وأيضًا العسل والحبوب القنب وبذر الكتان[4]، ومن هنا تظهر لنا أهمية نوفجورود كمركز من مراكز العصبة الهانزية الخارجية.

فى النهاية نستطيع أن نؤكد على أن المحطات الهانزية الأربعة، هى دليل واضح على نجاح الهانزا فى تدعيم علاقاتهم مع الروس والنرويجيين والفلمنكيين والإنجليز، إذ أنهم حافظوا على مراكز

(1) Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1229, P.29.
(2) Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1229, P.29.
(3) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.112.
(4) Hartmeyer, Der weinhandel im Gebiete der Hanse, P.2.

قوية لهم ودافعوا بكل شدة عن حقوقهم وامتيازاتهم التجارية على مدار سنوات وقرون طويلة، ورغم ما عانوه من مقاومة إلا أنهم نجحوا فى الدفاع عنها بكل الوسائل سواء كانت دبلوماسية أو غيرها.